JESSICA PENOT

CIRCE

DESIGN BY : MAI GAMAL

جيسيكا بينوت

سيرسي

ترجمة وإعداد : شيرين هنائي

سيرسي!

تأليف: جيسيكا بينوت
ترجمة وإعداد: شيرين هنائي

عن المترجمة: شيرين هنائي كاتبة روائية وكاتبة سيناريو ومخرجة رسوم متحركة ومترجمة مصرية. أعمالها الروائية: نيكروفيليا- صندوق الدمى- طغراء - ذئاب يلوستون- أسفار النهايات- ملاعيب الظل.

ترجماتها المطبوعة بالفصحى:
أشباح هيل هاوس (شيرلي جاكسون)- لطالما عشنا في حصن (شيرلي جاكسون)- ً طفل روزماري (آيرا لفين)- أشباح عزبة بلاي (هنري جيمس)

أعمال الكوميكس: خارج السيطرة- عجين القمر- الموت يوما آخر

الترجمات المجانية بالعامية على فيسبوك: - كتاب "عالم الشياطين" عن السيرة الذاتية لعالمي الشياطين إد ولورين وران.(سيرة ذاتية) - كتاب "في مكان مظلم" عن قضية الإستحواذ الشيطاني على الطفل ستيفين سنيديكر (قصة حقيقية) - كتاب "حصاد الشيطان" قصة الإستحواذ الشيطاني على المزارع موريس ثيريو (قصة حقيقية) - رواية "سيرسي" من أدب الرعب النفسي للروائية جيسيكا بينيت. - كتاب "عشرة أيام في مصحة عقلية" عن مغامرة الصحفية نيلي بلاي في مصحة بلاكويل في نيويورك (قصة حقيقية) - كتاب "دليل توبين الروحاني" كتاب عن الأساطير والشياطين في العالم. - كتاب "صائد الأشباح" تأليف هاري برايس- السيرة الذاتية لصائد الأشباح الأشهر هاري برايس (وقائع حقيقية)

الفصل الأول

عندما يلتقي مِسخ بمِسخ، يكون على أحدهما أن يستسلم..
من يستسلم لن يكون أنا..

تينسي ويليامز

***

الطريق لمؤسسة سيرسي العلاجية مكانش أكتر من ممر بين المستنقعات الي كانت بتاكل حدوده من اليمين والشمال. نباتات المستنقع وشجيراته المتشابكة بتخنقك بصوابعها الخضرا الرطبة. الماء كان راكد، بترقد فيه الحشرات وبقايا الحيوات. التماسيح بتستخبى ورا الحشائش الطويلة وبتستنى في هدوء، ممكن تشوفها بصعوبة في ضوء النهار.
المؤسسة نفسها تبان كأنها نامية من التربة، كأن الطبيعة نفسها هي اللي زرعتها هنا. من مسافة بعيدة ممكن تشوف برج المراقبة الطويل المائل المحطم. رغم سنين خدمته الطويلة محدش فكر يصلحه أو يصلح أي مبنى من المباني القديمة للمؤسسة. المباني الي فضلت واقفة في صمت تسمع صراخ المجانين.
كاسي مرة قالتلي إن أرواح قديمة غاضبة هي الي بتحرس القلعة، الي تحولت لاحقا للمؤسسة. الأرواح دي حراسها من الأطباء والمرضى. عمري ما صدقتها، ونادرا ما بصدق أي حاجة بتقولها، بس على طول بنصت لها..براقب شفايفها الشاحبة وهي بتتكلم عن كل الفلسفات الغريبة الي مالية دماغها.
كاسي بقت بالنسبة لي سيرسي، مش سيرسي الساحرة الي أغوت أوليس في الأساطير، كاسي بقت هي المؤسسة بحوائطها الحجرية الباردة..خيال بسطوة البيوت المسكونة، أو الأحلام الضايعة.
المكان إسمه "سيرسي"، غالبا إتسمى على إسم رجل إقطاعي بشنبات رمادي مبرومة وعشق للعنصرية.

دكتور كليمنت ريتشارد كلاك، كان عنده رؤية ما ورا تحويل قلعة مهجورة . لمؤسسة تحمل أول حروف من إسمه CRC.
لكن مع الوقت الحروف بقت بتتنطق سيرسي والمستشفى خلاص بقا إسمها سيرسي.
بعد ما تلقيت أو درس ليا في الأساطير، عرفت إن سيرسي هو إسم ساحرة أسطورية غريبة بقدر غرابة مستشفى تحمل إسمها.
مستشفى سيرسي كان لها سطوة علينا كلنا، على اللي شغالين فيها سواء حسوا بده أو لا. أول مرة وقع نظرنا على حوائطها المهدمة المشققة حسينا بغموض ماقدرناش نوصفه. المكان كان فيه ضباب زيه زي أي مكان حوالين مستنقعات جنوب ألاباما، والهوا كان كثيف وسخن..لكن برغم كده كنا منقادين لها لأنها كانت مستقبلنا.
بعد قضاء فترة تدريبنا كأطباء هنا، هانخرج منها محترفين مش مجرد خريجين جدد، هانخرج أطباء نفسيين نعالج العقول والنفوس، هانكون مشعوذي العصر الحديث!
الغموض الي حسيت بيه في سيرسي في اليوم الي وصلنا فيه لها، كان نابع من روحي بنفس القدر الي كان نابع به من المستنقعات، والإحساس ده كان عندنا كلنا، لكن ده كان مستقبلنا ولازم نستحمل علشانه.
اول ما قربنا، المبنى كان مستخبي ورا غلالة من الضباب، مكانش باين غير ساحة مبيت العربيات المحاطة بالأسوار الشائكة. كانت ساحة قبيحة زيها زي أي ساحة مبيت عربيات. قدامها كان في صندوق بريد، وكان في طاووس أزرق فارد ديله الملون وبيستعرض جماله وكأنه بيحرس الساحة الكئيبة.
الطاووس لفت نظرنا..طاووس في مستشفى؟ منظره كان عامل زي السمكة في الصحرا. في الأول إفتكرت إنه تمثال أو مجسم ملون بيداروا بيه حاجة، بس إتحرك! شهقت ورجعت لورا وضحكنا كلنا، ضحكنا على وجوده في آخر مكان نتوقعه.
بدأت حوائط سيرسي البيضا تظهر بالتدريج قدامنا وكأنها جزء من المستنقع. حوائطها الي إستحملت –كقلعة- أسابيع من القصف بالمدافع والي دلوقتي إتدهور بها الحال لإنها تبقا مستشفى أمراض عقلية.

للمستشفى تلات بوابات، منها بوابة بتقودك من ساحة الإنتظار للمدخل الرئيسي. كل شيء حوالين المدخل كان جميل، نافورات عتيقة بترش ميه مصدية في الهواء، زهور في أحواض على جانبي الممشى، شجر ضخم حوالين الحديقة، كل ده بيحوط المدخل المؤدي للمكتب الرئيسي، والي بيشاع عنه إن الثوري جيرونيمو إتحجز فيه أثناء محاكمته. المبنى القديم كان عبارة عن سجن ومخزن سلاح، دلوقتي إتغير تماما بكل لوحات الأزهار والأطفال المتعلقة على حيطانه، وموظفات الإستقبال المبتسمات ورا مكاتبهم في إستقبال المرضى في نفس المكان الي كان بيتم إستقبال المحكوم عليه بالإعدام فيه.
في تغييرات كتير حصلت، وإتقفلت ممرات وإتفتحت ممرات تانية لتسهيل وظيفة المبنى الجديدة وتيسير الإنتقال بين أقسامه.
كان في مبنى تاني، قديم ومظلم مبني بالطوب الأحمر، مصمم على الطراز الفيكتوري. شبابيكه الضخمة مُطلة على الساحة.
كاسي قالتلي إن المبنى إتبنى مع مطلع القرن الحالي، وفضل مهجور فترة طويلة لسمعته وتاريخه المريبين.
الأثاث والأجهزة الحديثة مكانتش لايقة خالص مع المكان. على الجهة المقابلة للبرج، كان مبنى كاسي، وفي نهاية مبنى المستشفى كان قسم الحالات المزمنة المطل على مساحة أرض فاضية، سكان القسم من المرضى أبعد مايكونوا عن الواقع، وعودتهم لعقلهم مستحيلة.
بالنسبة لي، كل شي بدأ هنا، رحلتي، مسيرتي.. أما بغمض عينيا مابشوفش غير المكان ده بيبصلي من ورا الضباب. لكن كان ليا حياة خاصة بره الجدران دي، وحياتي مابدأتش في سيرسي، بدأت مع مراتي، مراتي الجميلة.
ساعات كنت بسأل نفسي (أنا كنت مين؟) كنت بني آدم خاوي، خاوي وجشع. كنت دايما بدور على حاجة بعيدة عني. إتجهت لدراسة علم النفس لأن أبويا كان طبيب نفسي ولقيت نفسي في العلم ده. كنت متفوق، نابغة، حتى إني سجلت في أفضل برامج علم نفس الإكلينيكي في البلد. إخترت أسافر للشمال لأني كنت محتاج اشوف عالم مختلف، وأخدت مراتي معايا رغم علمي إنها مابتحبش الشمال. أخدتها معايا رغم معرفتي قد إيه بتحب الاباما. فضلت تعيط وهي بتجمع حاجاتنا، وعيطت طول الطريق، لكن عمرها ما لامتني على الأربع سنين التالية، عمرها ما لامتني على حياتنا في ديترويت.

الليلة الي قولت لمراتي فيها إن تدريبي هايكون في سيرسي كان في راس السنة، كنت بشتغل على بحث مهم وماكوناش سافرنا لعائلاتنا في العيد. بريا، مراتي، دعمتني نفسيا وماديا طول فترة أبحاثي.

ليلتها جتلي وأنا قاعد بذاكر ولفت دراعتها حواليا وقالت لي:
- كريسماس سعيد..
- الكريسماس جه؟!
سألتها وما بصلتهاش وأنا بسألها، وكنت أتمنى لو كنت بصيتلها، لو كنت أقدر أفتكر تدويرة خدها المنور في ضوء شاشة الكومبيوتر. كنت أتمنى لو شوفت إنحناءات جسمها على خلفية من أنوار الكريسماس الي كانت معلقاها وراها، وكانت بتضوي ورا شعرها الأسود الخلاب..لكني مابصيتلهاش وكملت كتابة، كملت شغل..
قالت بصوت حزين:
- أيوه..ممكن نفتح الهدايا؟
- جهزي كل حاجة وهاحصلك بعد ما أدخل الأرقام دي على الكومبيوتر.
بريا كانت خليط من التناقضات، أمها كانت من شمال الهند وأبوها إتولد وعاش في الاباما. بسبب إختلاف ديانة الأم والأب، ربت أمها بريا على تعاليم الإسلام، وحاول الأب تربيتها على تعاليم المسيحية. بريا كانت مؤمنة بالدينين ومتشككة في الإثنين. ممكن تلاقيها بتتكلم عن المسيح عيسى والنبي محمد في نفس العبارة، وكانت بتمارس العبادات الي بتحسسها بالقرب من الله من الدينين. كانت بتصوم رمضان(غالبا لأن الصيام بيخسسها) وبتحتفل بالكريسماس زي الكتاب ما بيقول. شخصيتها كانت زي إيمانها، كانت ذكية جدا لكن ساعات بتستغبى، كانت كل الستات في نفس الوقت: مستقلة، معتمدة على غيرها، متطلبة، متعاطفة، مدمنة على الثقافة الحديثة بس بتعشق تقاليد أمها القديمة، كانت بتلبس أشيك ملابس مودرن، وتاني يوم تلاقيها لابسه ساري هندي..بريا كانت كل شيء بالنسبة لي وكنت بعشقها.
بعد ما خلصت شغلي، روحت لغرفة المعيشة في شقتنا الضيقة، ولقيتها قاعدة مبتسمة ومستنياني.
مراتي كات جميلة جدا، وسطها كان رفيع وحوضها عريض، وصدرها ممتليء. بشرتها غامقة لامعة زي عينيها، وكنت بقولها إنت إلهة الخصوبة،

وكانت بتزعل مني. كانت بتفهم من كلامي إن قصدي إنها تخينة لكن ده مكانش قصدي أبدا. جسمها المشدود كانت بيخليها مثيرة جدا، وخليط الأعراق في دمها خلا جمالها مشع وفريد.

قعدت جنب الشجرة معاها وقلتلها:
- هاتطلع هديتك فاضية السنادي.
- إنت الي هديتك هاتبقا فاضية! علشان سايب مراتك على طول وبتشتغل طول الوقت.
- إزاي ممكن أسيبك؟
- حبيبي التاني قال لي إنك سايبني.
- إيه ده بقا؟ تعرفي حد غيري؟
- مش حد واحد..عشر رجالة زي القمر، وكل واحد فيهم كان بيعشمني يوديني الاباما في العيد.
إختفت الإبتسامة من على وشي، هزارها كان مؤلم..
- آسف..كان نفسي اوديكي لعيلتك العيد ده.
- ما تتأسفش..أنا كنت عارفة حياتي معاك هاتكون إزاي من قبل ما نتجوز. إنت عمرك ما كذبت عليا وأنا ماندمتش على جوازنا أبدا.
باستني، ونسيت كل حاجة عن شغلي وضغطي، كان عندها القدرة السحرية دي. قلت لها:
- إفتحي أول هدية لك مني بقا.
فتحت العلبة الصغيرة، ولقت ورقة جواها. قراتها وضحكت وحضنتي في براءة وإتحولت ضحكتها لبكاء وهي بتقول لي:
- شكرا شكرا شكرا! بس متأكد؟! أقصد إنت ممكن تقضي فترة التدريب في أحسن مكان في أمريكا كلها.
- مش عايز أحسن مكان في امريكا..أنا عارف قد إيه المكان هنا مضايقك ومش هاقدر أبعدك عن بلدك اكتر من كده.
- لا مش مضايقني خالص! بحب التلج وزحلقة العربية عليه والحوادث..
وبحب حقيقة إني بترعب أخرج أمشي الكلب بعد الساعة خمسة! مكان يتحب فعلا!
- على طول تهزري كده.

- الهزار هو الي خلاني أستحمل الأربع سنين الي فاتوا.
- هو الموضوع كان وحش أوي كده؟
- لا مش أوي..أنا بس بكره البرد وبلدي وحشتني.
- يبقا بينا على بنتلالا، الاباما!
- هي في أماكن ممكن تاخد فيها فترة التدريب في الاباما أصلا؟المكان مش قريب لبيت أهلي بس أهو، على الأقل هانبقا معاهم في نفس الولاية.
- بنتلالا هي المكان الوحيد المتاح فيه مستشفى مناسبة..ها..مش هاتفتحي باقي الهدايا؟
كان كريسماس جميل، كانت سعيدة وأنا قدرت أخيرا أسعدها. ماكونتش عايز أرجع الاباما، كنت سعيد في دترويت وبحب كل تفاصيلها وبردها وهدوئها وأهلها الي كل واحد في حاله. لكن في الاباما كل الناس تعرف بعض، وتحضن بعض في الشوارع وتسأل على بعض كل لحظة.
عموما مش مهم، الاباما مكان زي أي مكان تاني.

***

أجرت أنا وبريا بيت صغير في موبيل، وكان مكانه جوه أحراش الأشجار المميزة للجنوب. ذقن العجوز (نبات الطحلب الإسباني) نازلة من أغصان الشجر العملاق، ولامسة الأرض بأطرافها الجافة المسودة. عناكب الموز عايشة في مستعمرات متعلقة فوق رؤوسنا في الجنينة، بس مكانش عندنا مانع في العناكب إللي قد الكف طالما بتبعد الحشرات الضارة الي قد التليفون، كمان كانوا بيشكلوا (شبكة حماية) على حسب تعبير مراتي. هي متخيلة إن العناكب دي بتطرد الناموس والذباب من البيت، حتى إنها ساعات كانت بتحطلهم أكل وبتقول إنهم (رجال مكافحة الحشرات) بتوعنا!
قبل ما أستلم شغلي، قعدت أنا وهي تحت ظلال العناكب في الجنينة نشرب الشاي ونتكلم. كلبنا كان كل شوية شبكة العناكب تلزق فيه ويطلع يجري علينا وهو متكعبل فيها، وبريا كان بتضحك عليه وبتضحك عليا علشان بغضب من تصرفاته وجريه علينا وهو ملزق كده. بكره أحمي الكلب كل شوية ومابحبوش يدخل البيت مش نضيف.
أول أسبوع قضيناه في موبيل، صحابنا وعيلتنا دلعونا وملوا البيت هدايا وأكل وغمرونا بالترحيب. أنا بكره كده، وبكره دخول الناس وخروجهم طول الوقت

من مساحتي الخاصة وبيتي كأنه بيتهم. أم بريا وصحابها وأهلها كانوا عندنا طول الوقت وده خنقني وخلاني أشتاق للبرد والوحدة في دترويت.
بريا كانت بتطبخ لهم وتأكلهم في طقم الصيني بتاعنا، كانت بتديهم مفاتيح البيت وتنبسط أنهم بيدخلوا علينا من غير ما يرنوا الجرس.
كل الي كان ممكن أعمله هي إني اقعد في الركن، وإستنى يوم إستلام شغلي. أصواتهم ورغيهم في كلام فاضي كان بيوترني..رغي عن الأكل والهدوم وطنط فلانة الي مصاحبة علان، والناس في الهند كانوا بيعملوا معرفش إيه إزاي..إلخ.
بعد اول إسبوع حسيت إني تايه، والتوهان إتحول لغضب، غضب لأني ضحيت بشغلي ومستقبلي علشان أقعد في الركن أتفرج على بريا بترغي مع كل شخص في الكون. لذلك كان لازم أفصل، فروحت مع أخواتي لنيو أورليانز.
أنا واحد ضمن تلات أخوات، والإشاعة الي بتقول إن الجنوبيين متخلفين ومش متعلمين هي مجرد إشاعة، فينا كتير متعلم وفي مناصب عليا...لكن للأسف إخواتي مكانوش ضمن الكتير المتعلم اللي في مناصب عليا. مكانوش متعلمين ولا ناجحين. جيرمي أخويا الكبير كان شغال في شركة كهربا، وجيف أخويا الصغير كان بيتنقل من وظيفة لوظيفة، ومحدش فيهم غادر الاباما. كانوا بيحبوا الشواطيء المطلة على الخليج، الرمل السخن والشرب ومشاهدة غروب الشمس كان كل تسليتهم في الحياة. كان طموحي أكبر من كده بكتير، وعملت كل الي أقدر عليه علشان أمحي اللكنة الجنوبية من كلامي، وبذلت كل جهدي علشان أحقق حلم والدي وأتبع خطاه العلمية.
زي ما ذكرت، رحت مع أخواتي نيوأورليانز، الي مكانتش مختلفة أوي في الثقافة عن نشأتنا، وقضينا أغلب الوقت في البار بنشرب أو بنتفرج على البنات الي ترفع هدومها لأي حد يديها عقد خرز بخمسين سنت.
أخدنا أوضه في أوتيل بسيط وماقعدناش فيها أكتر من عشر دقايق، ونزلنا بعدها الشارع والشاطيء وأي مكان مش مقفول. سألني جيريمي بلهجته الجنوبية التقيلة:
- مستغرب إن بريا سابتك تسافر.
- بريا كانت ممكن تودّيني كباريه بنفسها علشان ترد لي جميل إني رجعتها الاباما.

- بس برضك أكيد مكانش يخطرلها على بال إننا هانقضيها من الكباريه ده للماخور ده!
- محدش قال لي والله قبل ما نسافر!
- طولت إنت في الجوازة دي.
- طولت لدرجة إني مابقاش ينفع أتفرج على شوية بنات بتعك في اي حركات قال يعني إغراء.
- هو في حاجة تتعمل تاني هنا وماعملناهاش!
ضحك جيرمي، فقال جيف:
- لا في..ماتنسوش محلات الفودو (الفودو نوع من أنواع السحر) و الكاريوكي.
بدات اللكنة الجنوبية ترجعلي وأنا بهزر معاهم وبفكرهم إنهم كمان متجوزين وهاتبقا "حوسة" لو "مراتاتهم" عرفوا. القعدة مع إخواتي بتبهدل وقاري فعلا.
قال جيريمي:
- بس يالا..مراتك حطاك في جيبك وخلتك تسيب مستقبلك وتجري وراها في الاباما.
- أنا ماجيتش معاكم علشان تفضلوا تقطموني..مش كل واحد فيكوا كان بيجيلي يشتكي من مراته الي ممشياه على العجين ما يلخبطهوش! دلوقتي مراتي أنا الي بقت حطاني في جيبها!
ضحك جيف وقال:
- والله عندك حق..مراتك حلوة الدور والباقي علينا!
إتقفل الموضوع على كده وشوفنا بار قعدنا فيه، شربنا وضحكنا وإتكلمنا في أي مواضيع تافهة، وللحظة حسيت إن ماينفعش أحكم عليهم، هم عايشين بطريقة وأنا عايش بطريقة، ومافيش حد أحسن من حد.
من اربع سنين بس مكونتش هاقدر أوصل للإستنتاج ده.
خرجت أمشي في الشوارع وسط المخمورين وفتيات الليل. بنات بتعري نفسها مقابل عقد خرز، رجالة بترجَّع على جانب الطريق. خرجت من الزحمة للميدان الي كان مليان قارئات طالع، واللي معظمهم كان من المراهقات الي قرولهم كام كتاب سحر من على الرصيف وجم يشتغلوا السياح هنا. منهم الي شبه المرضى العقليين، في كل الحالات محدش فيهم كان نبي ولا مكشوف عنه الحجاب.
وقفت قدام الكاتدرائية أتفرج على الناس واتخيل تشخيص لحالاتهم النفسية...

لكني ما شوفتهاش من الأول...

كانت جزء من الزحام، لكن مجرد ما شوفتها بقا مستحيل بالنسبة لي اشوفها جزء من اي شيء. عينيها الخضرا كانت بتبصلي وخلت الأفكار تتبخر من دماغي. شعرها كان قصير جدا، وكان متناثر على راسها في خصلات حادة كأنه ريش مصبوغ بلون إسود مزرق بيضوي تحت ضوء عواميد النور. إلتفتت وإبتسمت لي وضهرها لسه ليا، كانت لابسه بلوزة مفتوحة وكاشفة ضهرها، وعيون طاووس خضرا بتبص لي من وشم مغطي ضهرها كله. مشيت ناحيتها من غير ما أفكر ليه، وهي ماشالتش عينيها من عليا. أما وصلتلها ما سلمتش عليا ولا كلمتني، مسكت إيدي وكأنها هاتقرالي الكف. كان صعب تعرف سنها، كانت عاملة زي العصفور الصغير، وجلدها كان ناعم وبارد.

- هاتموت صغير!

- لا كده مش شايفة شغلك..المفروض تقوليلي كلام ضبابي إيجابي عن مستقبلي علشان أفرح واديكي فلوس أكتر..لازم تعرفي أنا محتاج اسمع إيه وتقوليهولي..

- إنت ماعندكش إيمان كافي بفن قراءة الطالع.

- لو عايزاني أؤمن..أؤمن..

بصتلي بثقة شديدة خليتها مغرية أكتر وأكتر، وكانت عارفة تأثيرها على الرجالة كويس.

- عايز تسمع باقي حظك؟

- لو كنت إنت حظي، اسمع.

- ما أفتكرش، أنا شايفة ستات كتير في مستقبلك.

- ستات كتير في كفي؟!

- لا..شايفاهم في هالتك الروحانية، ست سمرا، شكلها مش أمريكي، وست شقرا بعيون زرقا وهي دي حظك ومستقبلك.

- إنتي بتقولي إني هاسيب مراتي؟

سألتها في سخرية. كانت بتتكلم بطريقة غامضة بحيث أي حد يتخدع في تنبؤاتها، كل راجل نفسه في واحده شقرا بعيون زرقا. بس شخصيا ما كونتش مؤمن بتنبؤاتها أكتر من إيماني بوجود إله من الأساس.

- أنا ماقولتش كده، أنا بقول إن الست السمرا مالهاش مستقبل..أنا شايفاك مع الست الشقرا قدام شاطيء في جو عاصف.
- وهاقبلها إمتى الشيطانة الشقرا دي؟
- قريب.
- خسارة إن عيونك مش زرقا، كان هايبقا أحسن لو قضيت آخر عمري القصير معاكي.
ضحكت وقالت:
- كنت فاكراك متجوز.
- لحد ماشوفتك.
- حسابك عشرين دولار.
إديتها اللفوس وقولتلها:
- ممكن نشرب قهوة سوا؟
- عندي شغل.
- ممكن برضو تشتغلي، تقوليلي مستقبلي..هاموت وأعرف هايبقا عندي كم إبن مثلا..ثم إنك ما كلمتينيش كفاية عن الشقرا الي هاسيب مراتي علشانها واقضي باقي حياتي معاها.
- هاحتاج اقرا الودع علشان أعرف التفاصيل دي..بس قرايه الودع غالية.
- محتاج أعرف.
- الودع في شقتي.
الموضوع كده بقا! مشيت وراها في متاهة من الحواري المتشابكة وقلبي في رجليا. ماقالتش حاجة بس الفرجة عليها وهي ماشية قدامي كانت كفاية علشان تبوظ أعصابي. هي نفسها ما أثارتنيش قد ما المخفي عني أثارني..
غموضها..تلميحاتها.. كل شيء مخفي ومحرم منها. ماكونتش قادر أستنى لحد ما نوصل شقتها، لازم تفهم إني كنت سكران وفي الوقت ده، وكانت بتمثل لي كل حاجة سبتها في ديترويت..كانت الرصيف المبلول بالمطر والوحدة والبرد والهدوء..كانت بدون أهل ولا صحاب ولا طالبة تضحيات ما أقدرش أتغافل عنها بدون عواقب. ماكونتش حاسس ناحيتاه بالذنب علشان أهملتها ولا علشان أخدتها معايا بعيد عن أهلها.. كانت شخص مجهول في الظلام.
زقيتها ناحية الحيطة، ودفنت شفايفي في شفايفها، مكانتش قادرة تتنفس. كانت نحيلة وجسمها عظمي وناشف مش طرية زي مراتي. حسيت بدراعتها حواليا

وماقدرتش اسيطر على نفسي.. خلعت هدومها وكل شيء خلص قبل حتى ما تنطق.
لبست هدومها وإختفت في الضلمة بدون أي كلام. ركنت على الحيطة وبدأت آخد نفسي بعمق..ماحسيتش بحاجة إلا السلام..
مكانش أول مرة أعمل كده، كل مرة كان مع ست مختلفة ما اعرفش عنها حاجة ولا مهتم أعرف، بالنسبة لي كانت علاقات غير ضارة ولا مؤثرة ولا ممكن حد يعتبرها خيانة..مكانتش تفرق عن الرجالة الي بتنام مع زوجاتهم وهم بيتخيلوا ست تانية. كانت دي الطريقة الي بفضل بيها وفي لمراتي، وأما كنت بنام معاها مكانش أي حد بيخطر في بالي إلا هي.
رجعت الأوتيل وإيديا في جيوبي، وصورة البنت أم وشم طاووس بتروح من بالي بالتدريج وسمحت لنفسي أفكر في فترة تدريبي.
هايكون في إثنين من المتدربين معايا في سيرسي، ست ورجل. كان معايا أرقام تليفوناتهم بحيث نقدر نرتب مواعيدنا ونروح ونرجع سوا لأن المسافة طويلة وركوب عربية واحد مع تقسيم تمن البنزين كان الحل الأفضل.
دخلت الأوضة وكان إخواتي لسه مارجعوش، نمت على السرير وفي بالي إزاي أتفوق في سيرسي، ومكانش في بالي أي شيء تاني.

***

أما رجعت البيت، حسيت بالذنب..
بريا كانت مشّت كل الناس ونضفت البيت وحضرتلي العشا على ضوء الشموع. كانت زي إلهة هندية فائقة الجمال بالساري ده، مجرد النظر لها خلاني اندم على كل واحدة عرفتها طول عمري.
قولت لنفسي: أنا عندي مشكلة ولازم أعالجها..
كنت بحلل شخصيتي، كل تصرف من أبويا إتأثرت بيه وشوهني بدأ يظهر قدامي. كنت مؤمن إن الوفاء للزوجة مش شرط لسعادتها لأن أبويا عمره ما كان وفي لأمي، وكانت أمي بتقول لي: السعادة وهم والأحسن ما ندورش ورا حاجة ممكن تتعسنا.
كل ده إتخلط في دماغي وأثر عليا، ودقيقتين كده من العلاج النفسي الذاتي فوقوني. هاقدر اعالج نفسي وما أخونش مراتي تاني.
كل التفاصيل الجميلة فيها وفي العشا والبيت فوقتني.. سألتني:
- بتبصلي كأني مسحور!

- أنا مسحور..إنت عارفة بس عايزة تسمعيها تاني.
- ما أزهقش من سماعها أبدا..متوتر علشان بداية الشغل بكرة؟
- لا..متأكد إني هابقا أفضل متدرب في المستشفى.
- مغرور!
- واثق في إمكانياتي. شيء يضايقك؟
- لا أبدا، من الحاجات الي حبتها فيك ثقتك..من بين كل الي عرفتهم إنت الوحيد الي كان واثق وعارف عايز إيه..إنت الي إختارني وإختارته.
بس نفسي أشوفك مرة قلقان أو خايف! هاحطلك عناكب في السرير!
- لا ده ظلم!
هجمت عليها وزغزغتها، فضلنا نضحك ونغيظ بعض زي العيال لحد ما إستسلمت وقالت:
- كفاية هموت! كل عشاك..
- نتكلم جد بقا، ماتقلقيش يا بريا، بقدر أتكيف مع اي مكان جديد وهاقدر أنجح.
- بجد؟ يعني مش هاتكرهني علشان بوظت مستقبلك وجبتك هنا بدل ديترويت؟
- بتكبري الموضوع، ده مش هايبوظ مستقبلي أكيد، أبشع حاجة ممكن تحصل هي إن فرصي في الشغل تقل شوية..شوية صغيرة. مش عايز أسمع كلام في الموضوع ده تاني. وإنت هاتبدأي شغلك إمتى؟
- الخميس..أحسن من شغلي القديم..أنا بكره الشغل في المستشفيات، فمركز إعادة التأهيل واللياقة أفضل بالنسبة لي بكتير.
- إنت أحسن دكتورة علاج طبيعي في العالم.
- عرفت منين بقا؟
- أنا عارف كل حاجة..نسيتي؟
ضحكت، وضحكتها كانت موسيقى..كانت تطهير من كل ذنب إقترفته في حياتي..

الفصل الثاني

كنا تلاتة يومها، متكربسين في عربية آندي البيتل. آندي ممتلئة وشعرها أحمر وكانت أكتر طبيب نفسي إجتماعي ورغاي قابلته في حياتي. برغم إني عارف إنها في التلاتينات، إلا إن سذاجتها مغطية على سنها. طيبتها أخفت الحكمة الي المفروض تكون اكتسبتها بمرور الزمن.
أما جون، كان رجل قصير أسمر وكان أقرب لنوعية الناس الي ممكن اتعامل معاها بصدر رحب. خجله كان بيحجب طبيعته الإجتماعية، كان بيضحك كتير وبيقرقض ضوافره أكتر، وكان كلامه قليل. كان بيحب يلاحظ ويسمع واما يقرر يتكلم بيكون كلامه متلعثم عصبي سريع. اللي يهمني فيه إنه ما بيتكلمش كتير ولا بيسألني أسئلة شخصية، كان سايبني في حالي.
أول تجمع لينا كان مش مريح، محدش فينا كان عارف التاني ولا قادر يتوقع منه حاجة بس كنا عارفين إن فترة التدريب صعبة وتنافسية ولازم نتعلم نتعامل مع بعض.
الطريق كان صعب، والطاووس كان مطل من على أسوار المستشفى كأنه حارسها. أول ما آندي شافت الطاووس فضلت ترغي عن رمزيته القوية وتاريخة الملكي. كلامها ضايقني وسرق مني جمال اللحظة.
سألت:
- عمرك شفت حاجة زي كده؟ طاووس في مستشفى أمراض نفسية؟ أنا حبيت المكان ده خلاص!
ماردتش أنا ولا جون، لكنها كملت:
- إيه رأيكم؟ مش بذمتكم مكان تحفة؟ كنت متخيلة سيرسي عبارة عن مباني كئيبة وسط ساحة مسودة وفاضية. المبنى جميل..تفتكروا عمره قد إيه؟ شكله أثري..معدي 100 سنة ولا حاجة..هه؟ إيه رأيكم؟
فضلنا ساكتين، فقالت:
- ما أقصدش أشتم يعني، بس إنتم الإثنين أكتر ناس مملة قابلتها في حياتي! يا جماعة خدوا وإدوا معايا في الكلام! مافيش أي آراء خالص عن المكان؟

رديت عليها في برود:
- أنا مش شخص نهاري.
- ولا أنا، بس قدامنا أيام طويلة صعبة فياريت نتعرف على بعض أكتر.
- أنا مابحبش برضو أتكلم..ولا بحب الأسئلة الشخصية.
- أسئلة إيه الشخصية؟ أنا بسألكم عن رأيكم في المكان، فين السؤال الشخصي في كده؟
- السؤال ده بالذات لا، بس في الطريق سألتيني عن أهلي..ده سؤال شخصي.
- شايف كده؟ أوكي، خلينا نفضل ساكتين رايح جاي في الطريق طول السنة.
إتكلم جون أخيرا لأول مرة من تلت ساعة وقال:
- مافيش مشكلة، ممكن تسأليني أنا أسئلة شخصية عادي.
آندي إبتسمت له، رده ريحها إلى حد كبير، اضاف جون إنه مقدر كرهي للنهار فهايحاولوا يتجنبوا إزعاجي قدر الإمكان.
دخلنا علشان نقابل مديرة القسم النفسي، كان إسمها دكتورة ليديا بابكوك.
سلمت علينا وقالتلنا:
- أهلا بكم في جناح الحالات الخطرة في سيرسي. المكان بيتشرف بإنضمامكم لفريقنا.
كانت بتتحرك بسهولة في متاهات الممرات في الدور الأول، كل باب بتفتحته كان عليه قفل لازم يتقفل تاني بعد خروجها. صوت سلسلة المفاتيح في إيديها وهي بتفتح وتقفل الأبواب كان له وقع سحري طقسي.
قادتنا خلال قسم الرجال سريعا، وكان شبه مستحيل ما نبصش على الحالات. كان عدد قليل منهم قاعدين على كراسي برتقالي متناثرة وبيبحلقوا في الأرضية الخضراء. وعدد أقل كانوا ساندين على مكتب التمريض بيسألوا الممرضة على حاجة. التليفزيون كان شغال بس محدش كان بيتفرج عليه. كان في كمان عدد من الألعاب للتسلية بس محدش كان بيلعب.
سألتها آندي هي بتبص على الحجرة المخصصة للإستجمام والترفية:
- هي دي كل الحالات؟
- لا طبعا، ده الوقت الترفيهي لمجموعة معينة من الحالات، في مجموعات تانية في جلسات علاج، ومجموعات نايمة وفي مجموعات مسموحلها تنزل الحديقة تحت. ساعات بتلاقي المكان هنا زحمة وده في مواعيد الدواء أو الأكل، غيركده بتكون الدنيا هادية. في حالات بتقعد في القسم ايام اصلا وتتحول لأقسام تانية بعض الفحص.

فتحت دكتورة ليديا باب حجرة واسعة جدا، من خلالها مشينا في طريقة بتؤدي لعدد من المكاتب وتلاجات وجبات خفيفة. وأخيرا وصلنا معاها لحجرة إجتماعات مضيئة وواسعة.
- المكان ده هو الي هانقضي فيه أغلب يومنا. النهاردة عامة يوم طويل، ولازم أوصلكم لمبنى الموارد البشرية، ومهم تعرفوا إننا مضطرين نقسم تدريبكم مابين هناك وهنا. وقد يكون شكل التدريب نفسه غير الي إنتم متخيلينه، بس صدقوني نتيجته ممتازة. خلونا نروح نكمل الإجراءات الورقية لإستلام الشغل. إتنين منكم هايشتغلوا في قسم الحالات الخطرة أول ست شهور، وواحد هايشتغل مع دكتورة آلن في قسم الحالات المزمنة. بعدها الست شهور التانية هاتبدلوا الأماكن. مبنى روبرتسون الي فيه الحالات المزمنة الناحية التانية من الساحة. لذلك الي هايشتغل هناك هايشتغل لوحده مش مع فريق متدربين. من بقا فيكم هايتطوع يشتغل أول ست شهور لوحده في الحالات المزمنة؟
ما إترددش وقولت:
- أنا هاروح.
- دكتور بلاك، أنا سعيدة إنك سهلت علينا الأمور. غالبا كنا بندخل في خنقات علشان نلاقي حد يرضى يروح مبنى روبرتسون..اغلب المتدربين ما بيحبوش يتعاملوا مع أعراض الفصام.
-ايام ما كنت طالب، كان مألوف أتعامل مع الحالات الخطرة، كانت مالية المستشفى، بس مجاتليش فرصة ابدا أتعامل مع حالات مزمنة..شايف ده تحدي ممتاز.
الي ما قولتوش إنها فرصة ما أشتغلش مع آندي.
إبتسمت دكتورة ليديا وقالت:
- مش مألوف أسمع متدرب بيفكر بالطريقة دي. المهم، بعد تدريب النهاردة الصبح هاتفترقوا، بس هاتحتاجوا مساندة ودعم بعض طول السنة مهما بعدت المسافات بينكم. في أسئلة؟
- يومنا بيخلص إمتى؟
- حسب القسم الي شغال فيه. إسألوا المشرفين عليكم عن المواعيد. غالبا مش بنعدي الساعة اربعة ونص، بس في بعض الأطباء المشرفين على التدريب ممكن يحتاجوا المتدربين بعد أربعة ونص علشان الشغل الإداري. في أسئلة تانية؟
سأل جون:

- هو إيه الفرق بين قسم الحالات الخطرة وقسم الحالات المزمنة؟

- قسم الحالات الخطرة متنوع أكتر وفي ناس كتير شغالة فيه. في مثلا ست فرق علاجية في القسم، كل فريق فيه طبيب نفسي ومتدرب، وإثنين أخصائين إجتماعيين، إثنين من العاملين في الصحة النفسية وعدد من الممرضات المتوافرين. في قسم الحالات المزمنة، مافيش إلا فريق علاجي واحد. مافيش فيه طلبة طب كمان. بيكون فيه أخصائي إجتماعي وطبيب نفسي. في قسم الحالات الخطرة لو الحالة حادة بس مش خطيرة على نفسها أو الي حواليها، بيكون هدفنا نخلي المريض يطلع من المستشفى ويلتحق بمجموعة دعم نفسي يتابع معاها في بيته. ماعندناش إلا 200 سرير في القسم وهايتخفضوا ل150 بحلول الكريسماس. علشان كده بنبذل كل جهدنا لتصفية الحالات لإتاحة أماكن لحالات جديدة.
في قسم الأمراض المزمنة عندنا نفس الهدف. عموما يا دكتور بلاك نادرا ما هايتطلب منك أبحاث أو إختبارات نفسية جادة على عكس الي بيحصل هنا مع الحالات الخطرة والحادة. أغلب شغلك هايكون شغل ورق وتقارير. في القسم عندك 100 سرير هايقلوا ل75 بحلول الكريسماس، بس أعتقد إن ده هدف غير واقعي ومش ممكن يتحقق.
سألت آندي:
- هم عايزين يقللوا الأماكن ليه أصلا؟
- بإختصار، الدعم قل نتيجة قضية رفعها واحد على المؤسسة في السبعينات. ومن ساعتها والدعم المادي بيقل كل شوية.
قلت لها:
- لكن الأعداد المقبولة هاتكون قليلة جدا.
- حقيقي، ضيف لكده إن على الأقل 100 مريض عندنا مايقدروش يعيشوا حياة طبيعية، منهم الي مايعرفش يروح الحمام لوحده، أو مابيفكرش ياكل أصلا أو بيقطع شعره طول الوقت وعايش على المراقبة والمهدئات.
في منهم ماينفعش يخرجوا لأنهم خطرين..ممكن نقعد نتكلم ساعات عن الأحوال هنا، بس خلينا نبدأ شغل وهاتعرفوا التفاصيل مع الوقت.
مشينا للمبنى الإداري، وعدينا من قدام مبنى عتيق فيكتوري، كان جميل ومبهر، لكن د. بابكوك قالتلنا إن ماحدش بيستخدمه من السبعينات، والمفروض يُزال لأنه قديم جدا وخطر.

كان في كشك بيسموه (الكانتين) بيبع سجاير وحلويات و منظفات بسيطة للمرضى القادرين على العناية بنفسهم. حواليه المرضى كانوا قاعدين زي الأطفال، بياكلوا ويدخنوا ويضحكوا ويبصوا علينا وإحنا معديين قدامهم. سأل د.بابكوك واحد منهم:
- يا دكتورة، إنت جبتي الدكاترة الجداد معاكي هنا؟
- زي ما إنت شايف.
- هاتخرجوني إمتى أمال؟
- قالولك إمتى؟
- معرفش..
- لازم تركز في خطة العلاج، وأكيد هايطلعوك أول ما يلاقوا مجموعة علاجية تقدر تتابع معاها من البيت. تمام؟
- ايوه..إفتكرت فعلا إنهم قالولي كده.
في طريقهم شافوا الحلاق الي بيقص شعر الرجالة والستات يومين في الإسبوع، وشافوا عيادة الأسنان الي بتفتح يوم في الإسبوع، وهي خدمات مجانية كلها.
سألت دكتورة بابكوك:
- المبنى الأساسي من سنة 1615 فعلا؟
- ممكن تسأل دكتورة آلن، هي الي عارفة تاريخ كل ركن هنا.
سألت آندي:
- مافيش كتب عن تاريخ المكان؟
- زي ما قولت، دكتورة آلن عندها كل المعلومات والكتب، وهاتقضي معاها ست شهور وتاخدي راحتك معاها. هي ست ممتعة جدا وعندها ثقافة ومعرفة بكل حاجة.
وقفنا عند مبنى فيكتوري تاني، كان قديم ومشقق، وراكب في جدرانه مكيفات هوا عتيقة. أما فتحنا بابه كان بيزيق زي افلام الرعب. شاورت دكتورة بابكوك ورانا وقالت:
- بصوا، شايفين بوبا؟
- من بوبا؟
- طاووس من المقيمين هنا. أما كنت متدربة في آيوا، كان في طاووس برضو في المستشفى الي كنت فيها.

بصيت لبوبا الي كان بيتمشى في المكان زيه زي أي فرخة عادية وهو منزل ديله، كان بينقر في الأرض وياكل الفتافيت الي بتقع من أكل المرضى.قالت آندي:
- مكان تحفة..لو حصل وإتجننت في يوم من الأيام هاحب يجيبوني هنا.
بصتلها دكتورة باكوك في جدية وقالت:
- مابحبش أي إشتقاق لكلمة (جنون)..أغلب المرضى هنا مش هايحبوا يسمعوها أبدا. ومافيش حاجة حلوة أوي هنا تخلي حد يتمنى يفقد عقله علشانها.
- أنا بس كنت بقول إنه مكان مثير يعني..
تجاهلتها دكتور بابكوك ودخلنا المبنى الإداري.

***

قضينا ساعات مملة نتفرج على أفلام عن المرض النفسي ونسمع محاضرات عن طريق التعامل مع المرضى والممنوعات عليهم، بعدها قعدت ممرضة ضخمة سردت علينا كل شيء عن تاريخ المؤسسة وعدد ووظائف العاملين فيها.
الساعة أربعة جه طبيبين نفسيين مقيمين، دكتور دونالد، وهو رجل عجوز بدقن رمادية، وكان شغال في قسم الحالات الحادة..يعني مش هاشوفه تاني قبل ست شهور.
أما الطبيب التاني كان دكتورة كاسندرا آلن..كاسي..
كانت باردة ومافيش أي تعبيرات محددة على وشها وماسابتش عندي اي إنطباع..
وكانت شقرا، بعيون زرقا..
غريبة إن أكتر المواقف الي بتغير حياة الإنسان الواحد ما بياخدش باله منها ولا بيحسها مهمة.
كاسي كانت عاملة شعرها ضفيرة عشوائية طويلة على كتفها، عينيها الزرقاء الباهتة كانت بتبصلنا بخواء من ورا نضارتها أم إطار إسود، بشرتها كانت بيضا جدا لدرجة إني كنت شايف العروق من تحت جلدها، مكانش فيها أي شيء مثير للدهشة أو تلفت النظر بأي شكل حتى لبسها كان عادي جدا، وكانت نحيفة للغاية، بس ممكن أتخيل أكتر من مجرد جلد أبيض مشدود على عضم لو ركزت شوية.

عرفت نفسها لي وقالت:
- أنا دكتور آلن.
- أنا إريك بلاك.
- أنا بروح البيت الساعة أربعة ونص.
قالتها وكأن المفروض إني فاهم قصدها إيه. فضلت باصصلها لحد ما كملت وقالت:
- الساعة خمسة إلا ربع دلوقتي، ودي المرة الوحيدة الي هاتأخر فيها بسببك. ممكن أطلب منك تتأخر لكن أنا مش هامشي بعد أربعة ونص أبدا.
- أكيد طبعا مفهوم.
بصت لي من فوق لتحت، وقالت:
- تعالى ورايا.
مشت في الإتجاه المعاكس لقسم الحالات الحادة وفي إتجاه ساحة فاضية. مبنى روبرتسون كان شبه قسم الحالات الحادة وكان نسخة من باقي المباني، لكنه كان واقف لوحده وسط ساحة فاضية.
قادتني دكتورة آلن وسط الممرات، بتفتح أبواب وتقفل أبواب في طريقها لحد ما ركبنا الأسانسير وطلعنا الدور الرابع. مكتبها كان كبير ومظلم ومترب. الحوائط كانت متغطية بمكتبات مليانة كتب محطوطة جنب بعض وفوق بعض بشكل فوضوي. الكتب كانت عتيقة، اقدم من المبنى نفسه. بعض الكتب كانت طبية، واغلبها كانت كتب فلسفة واساطير وسحر.
مكانتش معلقة شهاداتها على الحوائط زي ماهو متوقع، مكانش في غير لوحة عبارة عن ست عريانة ماسكة قلب بشري بين إيديها.
- مافيش مكاتب تانية متاحة، هانضطر نتشارك المكتب ده. ده إدموند دولاك..
- نعم؟
- الي رسم اللوحة..الست دي سيرسي.
- مين؟
- الست الي في اللوحة..
الرسمة كانت أبعد ما يكون عن تخيلي للساحرة سيرسي، كانت صغيرة اقرب للمراهقة، وسمرا..وكانت جميلة.
إديتني دكتورة آلن سلسلة مفاتيح فيها مفتاح البوابة ومفتاح الجراج والمكتب والاسانسير. وشاورت لي على ترابيزة في الركن ممكن استخدمها.

- هانتشارك نفس الكومبيوتر، ومش هاتقدر تستقبل إلا مكالمات الطواريء فقط، مافيش مكالمات شخصية. متوقع الاقيك هنا الساعة 7 الصبح. أي أسئلة؟
- كل شيء واضح زي المطر.
- هو المطر واضح؟
- أعتقد!
مشينا لساحة الإنتظار ومقالتش ولا كلمة ولا حتى وداع قبل ما تركب عربيتها. ما أخبيش إني بدأت أشك إني إخترت غلط وإتدبست في عزلة كاملة لمدة ست شهور.

الفصل الثالث

أنا الحية المتفاخرة، ذات الأنياب النارية..

ثوريساز- المَخرج

***

صدقني، أنا مش حالم..مابضيعش وقتي في تخيل مستقبل غير محتمل، مبابحبش الروايات ومتمسك بالحاضر وبس..عمري ما ضيعت وقت في الأحلام.
نومي كان شبه خالي من الأحلام، ولو حلمت بنسى أحلامي..
لكن الليلة دي أول مرة أحلم حلم مجسم بالألوان الطبيعية، ولأول مرة أتفهم سر شغف مرضاي بتفسيرات لأحلامهم ومابيقتنعوش بتفسيرات فرويد والاعيب العقل الباطن.
الحقيقة الأحلام هي نشاط عصبي في المخ، ذكراتك بتتحرر وكل مخاوفك والي مضايقك او شاغلك بيظهرلك على شاشة الأحلام بليل، مافيهاش حاجة مستاهلة تفسير غيبي، الموضوع بسيط وعشوائي.
حلمي مكانش سهل الفهم..أما صحيت الساعة 2 غرقان في عرقي جنب مراتي، حسيت بالخواء والإنزعاج وماقدرتش أدخل في النوم تاني.
في الحلم شوفت ست، على الأقل كنت معتقد إنها ست، جلدها كان تحته عروق سوداء بتنبض، ملامحها كانت بشرية لكنها مكانتش من البشر. حشرات كانت بتزحف بره بُقها وترجع تدخل من مناخيرها، عناكب كانت بتجري تحت جلدها الشفاف.
كانت في حالة ولادة مستمرة..بتولد ذئاب، والذئاب بترجع تقع من بطنها وتدخل جوها تاني. كان شعرها عبارة عن أذرع مرعبة بممصات زي الأخطبوط. رغم إن كل حتة في جسمها بتتحرك، بس كانت مدياني إنطباع بالسكون، كانها تمثال موبوء بالأفاعي.

أما صحيت كنت لسه قادر أشم ريحتها، وصورتها مطبوعة في عقلي، ومافيش أي نشاط عملته قدر يشوش عليها. أخيرا بريا صحيت ولقتني قاعد على الكنبة. قعدت جنبي وسألتني وهي نص نايمة:

- صحيت ليه؟
- مش قادر أنام.
- غريبة..طول عمرك بتنام أي وقت.
- عارف، وده الي ضايقني أكتر من اي حاجة تانية.
- إنت متوتر بسبب الشغل الجديد صح؟
- ما أعتقدش.
- أمال مالك يا دكتور؟
- حلمت..
- بتهزر! مش كنت مصدعني إن الأحلام مجرد نشاط من المخ!
- بكره إستخدامك لقناعاتي ضدي!

مشاكستها حسنت مزاجي إلى كبير وخلت الست المرعبة تختفي بالتدريج. أما بكون معاها كل حاجة تانية بتختفي، وماهمنيش إني مانمتش لأن وجودها خلاني أصحى فايق. كانت نايمة عريانة وشعرها منثور حواليها، وماقامتش أما أنا صحيت. كان ممكن أقضي طول اليوم أبصلها مش أكتر وأسمع لصوت نفسها.

كنت متعود أنزل أجري ساعتين تلاتة قبل الشغل، وكان بريا بتصحى على مهلها وتفطر وتكلم مامتها، وكان التمرين آخر حاجة بتفكر فيها. بس كان عندها أربع فيديوهات لتمارين منزلية، أكتر واحد بحبه فيهم هو اليوجا. كنت بقعد أتفرج عليها وكنت بكره تفوت تمرين.

إستنيت لحد ما آندي جت بعربيتها الفولكس متأخرة، ركبت متغصب، وكل ما الوقت كان بيعدي كنت بفكر في طريقة أقتلها بيها وهي نايمة.

- معلش العربية عطلت..
- المرة الجاية لو العربية فيها مشكلة كلميني وهاعدي عليكم أنا آخدكم..بس مش هاينفع أتأخر كده. دكتور آلن صعبة أوي.

قعدت في الكنبة الي ورا، وحاولت ما أركزش في رغي آندي من طرف واحد مع جون.

ضحكتها كانت عاملة زي الصنفرة، كان معايا في الجامعة بنت زي آندي كده وكانت برضة مليانة وبتلبس شورت قصير وحمالات ومبينة وشومها.

بصراحة بكره الناس الي ما بتحترمش وزنها دي. كنت مجبر أشتغل معاها في بحث بس قدرت بمعجزة أخليها تسيب البحث خالص وتشوفلها حتة تانية بلحمها ده.
بريا كانت زعلانة من تصرفي ده جدا لأنها شايفة إني ضيعت مستقبل البنت علشان مش عاجباني.
عارف إنها ما غلطتش، وعارف إني إستغليت عيوب فيها علشان تبان إنها غلطت.
بريا مكانتش قادرة تفهم، ولا هاتقدر تفهم كرهي لآندي..النوع ده من الستات هايفضل يتكلم عليا من ورايا ويعمل فيا مقالب علشان يبان أحسن مني.
ماكانش ينفع أقول الكلام ده لبريا لأني هبان قدامها عندي جنون إضطهاد.
عموما أنا كنت واثق إن آندي كانت بتتهامس مع جون عني.
الناس عايزة تقلل مني وتأذيني علشان أنا أحس منهم، طول عمري كنت أفضل طالب وأفضل طبيب نفسي وده الي بيخليهم يغيروا مني. الي وصلتله كان بإجتهادي مش زيهم.
كنت سعيد إني مش مضطر أشتغل مع آندي، لأني لو كنت مضطر كنت هاسود عيشتها. بس أنا مش عايز أعمل ده ولا عايز أدمر مستقبلها ومن حظنا إحنا الإثنين إننا بعدنا عن بعض.

***

أول كام إسبوع في الشغل كانوا صعبين، لكن الشغل نفسه كان مخليني أتحمل كاسي كرئيسة. كانت بتتكلم بشكل مباشر ومكانتش بتديني أوامر، كانت بتكتب الي عايزاه مني على ورقة وتسيبها على مكتبي.
لسة فاكر أو تعليمات كتبتهالي:
إقرا الملفات على مكتبي.
روح لتخطيط العلاج في أوضة 5
إتغدى.
إحضر جلسات العلاج مع كاتي علشان إنت هاتستلم منها بكرة.
أقعد مع السيد بينوت والسيد إثان، والسيدة آيدون والسيد نيكا، علشان تنسق علاجهم بكرة.
أكتب تقارير زي النموذج الي على مكتبك.
ممكن تمشي أما تخلص شغلك.

الغريب إنها كانت واثقة فيا أعمل كل الشغل ده من غير إشراف مباشر منها، والأغرب إني ماكونتش عارف لو أنا هاعمل كل ده هي بتعمل إيه؟!
يبان إن ده كان حلمي من الأول، مشرف بعيد مابنتقابلش وسايبني في حالي تماما، بس كنت غلطان، ماكونتش مرتاح تجاه غيابها التام. كنت حاسس بالعجز وإني مش ماهر زي ما كنت متخيل.
أما وصلت لمرحلة تخطيط العلاج الساعة 8، أوضة 5 كانت فاضية أكتر مما تخيلتها. كان في خمسة بس من الأطقم الطبية، وكانت السيدة جارنر الأخصائية الإجتماعية، قاعدة في ركن وبتزعق للمرضة الي معاها. جنب الممرضة كان قاعد دكتور يوشي، كان لابس هدوم عِزها كان في التمانينات. كان بينام على روحه بس ما كونتش قادر احدد هل هو بينام فعلا ولا بيتمايل لسبب ما بسبب نضارته الغامقة.
السيدة جارنر بصيتلي أول ما دخلت وقالت لي في عصبية:
- إنت طالب ولا متدرب؟
- متدرب.
- كويس علشان قرفت من الطلبة. الطريقة المتعالية الي بيعاملونا بيها..حاجة تنرفز.
كنت مستغرب عصبيتها أوي، قلت لها:
- أنا دكتور..
كنت متخيل إنها هاتفهم وتبطل خناق، لكنها كملت:
- ببيجوا هنا يتعلموا، بس مناخيرهم في السما ماتفهمش على إيه..شوية جهلة.
قربت مني الممرضة وقالت لي:
- معلش شافت منهم كتير خاصة آخر طالب جه هنا. كانوا بيتخانقوا على تشخيص حالة والموضوع وصل للمشرفين، وتشخيص الطالب هو الي كان صح.
صرخت السيدة جارن:
- ماتخرسي! إسمك إيه بقا؟
- دكتور بلاك.
- دكتور آلن هاتشرفنا بحضوها النهاردة؟
- أشك..بس أنا قريت كل التقارير وأقدر أحل محلها.
- هنبدأ بقا..الطالب من دول يقراله تقريرين ويقولك هاحل محل دكتور!

- بس أنا مش طالب! أنا خلصت دكتوراه ومؤهل أحل محل دكتورة آلن وتحت إشرافها!
- هي فعلا أشرفت عليك في حاجة؟
قالت الممرضة:
- كفاية بقا! هاتطلعي عينه علشان مابتحبيش دكتورة آلن! مايتصرفوا هم مع بعض إيه دخلك؟
سألت علشان أقفل الموضوع:
- مش المفروض نبدأ من تلت ساعة؟
طلعت الممرضة ورجعت بعد دقايق ومعاها رجل ستيني لسانه طالع بره، الرجل قعد قريب مني وفضل يطلع ويدخل لسانه ويعمل صوت شفط سخيف.
تقرير دكتورة آلن بيقول إن السيد جيليز حالته كالتالي: كان قذر، وبيعمل بعض التصرفات المألوفة عن المرضى العقليين. مكانش واعي للمكان ولا الزمن وبقاله 32 سنة مابين الإقامة في سيرسي والخروج منها لفترة قبل العودة لها. مع الوقت حالته سائت ومابقاش عنده عيلة تاخد بالها منه وبقا مش قادر على تنظيف نفسه ولا إستخدام الحمام لوحده.
تشخيص دكتورة آلن كان فصام.
سألت السيدة جارنر الحالة:
- سيد جيليز، إنت عارف إنت هنا النهاردة ليه؟
إتقلب السيد جيليز في كرسيه ومال عليا وبص لي وهو بيسألها:
- من ده؟
- دكتور بلاك، هايبقا طبيبك المعالج من النهاردة.
- وإنت شغلتك إيه يا بلاك؟
قلت:
- شغلتي أحاول أساعدك.
طلع لسانه بره ببطء وهو بيبص لي وبعدين قال:
- إنت عارف إني عشت في افريقيا 50 سنة؟
- فعلا؟ إنت عارف إنت فين دلوقتي؟
- في المستشفى.
سألته السيدة جارنر:
- وعارف إنت هنا ليه؟
- علشان عيان.

- ليه عيان؟
- علشان الحرب باين؟؟
- اي حرب؟
- حرب من بتوع أفريقيا دول، عارفاهم؟ في نيجيريا..أصل أنا أفريقي بس البينو، عدو الشمس يعني علشان كده أبيض.
مكانش في حد ممكن يكون أفتح في لون البشرة من السيد جيليز، ولو فيه أي نسبة إفريقية هاتكون من القهوة الإفريقي الي بنشربها في الكافيتريا. سألته السيدة جارنر:
- عارف عندك كم سنة؟
- واحد وعشرين إتنين وعشرين..عطشان..عايز ميه!
قالت السيدة جارنر موجهة كلامها ليا:
- كنا بنضطر ننقل السيد جارنر للعناية الطبية لأنه بيحصل له خلل في الاليكترولايت..كان بيسرق الميه ويشرب كميات مهولة لحد ما أثرت في قلبه. بنشربه 8 كوبايات في اليوم بس هو عايز 8 جالونات!
بعد أسئلة كتير، قرر الدكتور إنه يبدأ علاج في جلسات الواقع و جلسات التأمل تلات شهور تانيين.
قلت لهم:
- بس دكتور آلن كانت كاتبة إنه بيتحسن مع مجموعة كاتي وجلسات السلوك أكتر من جلسات الواقع. هي أوصت بتغيير المجموعة والكشف عليه بعد شهر واحد لتقييمه.
قالت السيدة جارنر:
- السيد جيليز مش بيتحسن على أي جلسات أصلا.
- التقارير بتقول إنه غير متصل مع الواقع بأي شكل. ومكتوب إنه واظب على علاج جلسات الواقع عشرين سنة بدون تحسن.
مال عليا دكتور يوشي وبص لي من فوق نضارته وقال:
- إحنا مش متوقعين إنه يتحسن.
- بس العلاج الدوائي لوحده مش كافي!
- طيب مانجرب إقتراحاتك..تقترح إيه؟
قاطعت السيدة جارنر طلب دكتور يوشي وقالت وهي بترمي ملف الحالة في وشي:
- إنت عليك تعمل الشغل الورقي والإداري يا دكتور فهمت؟

- هحاول.
إكتشفت بعد كده إن أغلب شغلي هو شغل ورقي وإستمارات وتصاريح وتقارير وبس. كل يوم على كده، بنكشف على تلات أربع مرضى ونعمل تقاريرهم. كنت بتغدى لوحدي، واللمبات النيون السخيفة في مكتب دكتور آلن بتجيبلي صداع رهيب باقي اليوم.

***

وريتني كاتي – الي معاها درجة بكالريوس في علم النفس- ملفات المرضى الي المفروض هايحضروا جلسات علاج الواقع، وكانوا 45 ملف.
بصيت فيهم وسألتها عن واحد منهم:
- إسمه كريج السمين؟
- أيوه..أبوه كان صيني أو حاجة كده. هاتضحك أكتر على إسمه أما تشوفه.
كاتي كانت شبة الجنية في كتب الأطفال كده، ماتزيدش عن 23 سنة، بس كانت شايلة أغلب شغل الدور الأول من قسم الحالات المزمنة.
بدأت الحالات تدخل أوضة الجلسة، وكل واحد حاول يقعد في ابعد ركن ممكن وبعيد عن زملاؤه قدر الإمكان. أما كاتي قفلت الباب كان معانا 6 حالات بس.
- هي دي الحالات كلها؟!
- ده مش قسم الحالات الحادة..أغلب المرضى حضروا جلسات العلاج دي سنين وفقدوا إهتمامهم تماما بيها.
- مافيش طريقة نقدر نجبرهم أو نشجعهم بيها على الحضور؟ دول 6 من 43 يا كاتي! مافيهاش هزار دي.
- بنجرب كل حاجة طول الوقت صدقني..جربنا نقول لهم إن الي مش هايحضر مش هايشرب حاجة ساقعة خالص..جربنا نخوفهم بإن الي مش هايحضر مش هيطلع من المستشفى..قليل الي بيستجيب وأغلبهم مش فارق معاهم.
وقفت كاتي وسط الأوضة وكلمت المرضى بطريقة حماسية وقالت:
-من فاكر المفروض نقعد إزاي في الجلسة؟
أستاذ السمين رفع إيده بسرعة وقال:
- المفروض نقعد في على شكل حلقة.
باقي المرضي كانوا عاملين إنهم مش واخدين بالهم أما قالت كاتي:
- طيب ياللا قوموا اقعدوا في حلقة.

قاموا المرضى متغصبين وإتلكعوا كتير في جر الكراسي، في النهاية قربوا شوية من منتصف الأوضة لكنهم ماعلموش دايرة ولا قربوا من بعض أوي.
- أقدم لكم دكتور بلاك، هايحضر معانا كم يوم وبعدها هايتولي هو بنفسه إدارة الجلسة. مين فيكم حابب يبدأ الأول؟
تحمس الأستاذ السمين، وبصراحة إسم عيلته كان غير لائق أبدا خاصة وإنه فعلا كان بدين لدرجة مابنشوفهاش في الحياة العادية اصلا. كان واحد من أكتر المرضى المتكلمين في القسم. قال فببطء:
- أنا إتحسنت من ساعة ما جيت هنا كتير. أنا ماشي على التعليمات ومتوقع أرجع بيتي قريب.
كل كلمة كان بيقولها كنت تحس إنه بيموت وهي طالعة. نفسه كان متقطع وحركة لسانه تقيلة. سألته كاتي:
- إيه سبب دخولك المستشفى؟
- ُعلشان قالوا إني تخين.
- ده السبب الوحيد؟
- أنا باكل كتير أوي.
- وتشخيصك كان إيه؟
- كان إني تخين.
- اعتقد إن تشخيصك كان أكتر من كده شوية، مالاحظتش إن في بعض من تصرفاتك محتاجة تغيير؟
- لا.
- يعني هم جابوك هنا علشان تخين بس؟
- أيوه.
- طيب خلينا نسأل المجموعة، ممكن حد يساعدنا. هل كون السيد السمين وزنه زيادة ده سبب كافي إنه يتحجز في المستشفى هنا؟
قام أحد المرضى بسرعة من كرسيه ووقف، كان لابس جاكيت جلد أحمر، وقال:
- علشان إبن كلب مجنون!
سألت كاتي:
- معناه إيه الي إنت بتقوله ده يا سيد نيكّا؟
- يعني مخه بلوظة..مش شايفة؟ معفن وعمال ياكل ويلُغ لحد ما الدود ضرب فيه ولسه عمال يلهف في الأكل.

غضب السيد السمين وشتم السيد نيكّا، قالت كاتي وهي بتحاول الأمور ماتخرجش عن مسار الأسئلة:
- قصدك إنه بياكل لحد ما يرجع في الأكل وبعدين ياكل الأكل الي رجعه تاني؟
- مابقولك معفن!
- خلينا نركز بس، سيد السمين، إنت شايف إنه صح تاكل الأكل الي رجعته؟
- ماهو محدش بيخليني آكل، وببقا جعان على طول..أجيب أكل منين؟
- يعني شايف إن التصرف ده طبيعي؟
-...معرفش....
- قبل ما تيجي المؤسسة، هل شوفت حد بياكل قيئه قبل كده؟
- لا.
- يبقا ده تصرف مش طبيعي صح؟ فهل تعتقد إنك محتاج تغير السلوك ده قبل مانسمح لك تمشي من هنا؟
- ممكن.
- يعني في سبب تاني غير كونك تخين هو الي حاجزك هنا؟
- ايوه.
- هتحاول تغير السلوك ده؟
- لا مش هاعمله تاني.
- ممكن تطلب وجبة إضافية لو جعان.
- حاضر.بس انا عايز أخرج بسرعة ارجع لأمي.
- والدتك قالت إنه مش هينفع ترجع تعيش معاها. مش كده؟
- أيوه بس معرفش ليه.
- طيب لو خرجت هاتروح فين؟
- أمي بتحبني.
- ليه ماما مش عايزاك ترجع البيت؟فكر كده.
- ....كانت بتجوعني..بتمشي على كلامهم وتجوعني، مش غلطتي.
- إحنا إتكلمنا في الموضوع ده ميت مرة، مش بسألك عن الي هي عملته، بسألك عن الي إنت عملته..ليه مش هاينفع ترجع تعيش معاها؟
- علشان..علشان طعنتها.
- ومش شايف إن دي حاجة لازم نعالجها ونحلها قبل ما ترجع البيت؟ هل طبيعي نطعن الناس علشان مش عايزين يأكلونا زيادة؟
- لا..

- يبقى انت هنا ليه؟
- علشان بأذي الناس أما بتعصب.
- صح كده.
- بس أنا إتحسنت كتير وفضلت أقول لنفسي إن محدش بيسرق أكلي.
- ممتاز..عايزاك المرة الجاية بقا اما تحضر الجلسة، تقول لي انت ليه محجوز هنا من أول مرة من غير لف ولا دوران.
- حاضر.
- انت بتتحسن كتير، عارف ده؟
- ايوه عارف وحاسس.
- جميل..من تاني عايز يتكلم؟ سيد نيكا؟ كان في كذا هدف إتكلمنا فيهم المرة الي فاتت فاكرهم؟
- أنا مش مجنون! مش عايز اهداف ولا زفت وإنتم ماساعدتونيش بنكلة مع إني قولت لكم إيه المشكلة.
- ركز..
- إنت عارفة إنهم لسه تحت سريري!
سألت أنا المرة دي بدافع الفضول:
- من؟
- الشياطين! عايز تلطش فلوسي!
قالت كاتي:
- ركز..المفروض تعمل إيه أما تسمع الشياطين تحت سريرك؟
- ما إنتوا محدش هامه! حاطيننني مع العالم الخُلَل دي.. ولاد الكلب دول..خاصة الي هناك ده.
شاور على السيد جيليز الي كان قاعد في هدوءولسانه بره وقال:
- الكلب ده بيعملها على سريري كل يوم..ليه مافيش حمام؟ مايروح يعملها على سريره! بعدين ريحته معفنة ومضطر انام معاه في نفس الأوضة وماحدش فيكم على باله حاجة. محدش هامه وهم عايزين فلوسي..
- سيد نيكّا ركز، المفروض تعمل إيه اما تسمع الشياطين؟
قام السيد نيكا وطوح الكرسي في وشنا وجري بره الأوضة وهو بيشتم كاتي.
ملف السيد نيكا بيقول إنه عنده فصام وبارانويا ما تستجيبش للعلاج. راح أكتر من مستشفى على مدار الخمس سنين الي فاتوا، وبقاله في سيرسي شهرين. بمجرد ما يلاقوله علاج يحسن حالته هايبعتوه يكمل علاجه في البيت.

باقي الحالات الي في المجموعة ما إتكلموش كتير، و مرت الجلسة بشكل هادي بعد خروج نيكا.

***

قابلت السيد بينوت وكشفت عليه، كان رجل أبيض خمسيني متحول لنا من يومين. بصيت على تقارير حالته الي إتكتبت من قسم الحالات الحادة بس كان لازم أكتب تقرير خاص بقسم الحالات المزمنة.
روحت أوضته الساعة تلاتة ونص وكان نايم عريان في سريره. حاولت اصحيه لكنه ما إستجابش إلا أما هزيته بعنف. سألته:
- عارف أنا مين يا سيد بينوت؟
- أكيد.
- أنا مين؟
- إنت جوز الست.
- أنا طبيبك الجديد دكتور بلاك. محتاجين نقعد نتكلم شوية، فهل ممكن تقوم من السرير وتلبس علشان نعرف نتكلم؟
- لا..محتاج أفضل في السرير.
- متأكد؟ أعتقد إنك هاتبقا أحسن لو لبست هدومك.
- لا..انا كده حلو.
هزيت كتافي وقعدت على الكرسي قدامه وسألته:
- إنت عارف إنت فين؟
- عند سال.
- لا إنت في المستشفى، فاهم؟
- ايوه إفتكرت دلوقتي.
- عارف إنت هنا ليه؟
- فاكر عمايل سال والمزرعة؟
- لا أنا دكتور بلاك وما أعرفش سال.
- والكلب أما كنا في نيويورك..كان لونه إيه؟ بعدين قومت إنت قاتله.
- عارف يا سيد بينوت إنت في أي ولاية؟
- لويزيانا.
- إنت في الاباما..عارف النهاردة إيه؟
- في الكريسماس..

مافهمتش باقي الكلام الي قاله بعدها، دونت ملاحظاتي بسرعة وسألته:
- عارف إنت مين؟
- جون بينوت.
- كويس، عندك كم سنة؟
- 55 سنة.
- عارف من رئيس الولايات؟
- غاندي!
رفعت قلمي قدامه وسألته:
- عارف إيه ده؟
فضل يتكلم كلام مش مترابط، وافكاره مكانتش لها علاقة ببعض خالص. في وسط الكلام قام وقف وفضل يهرش في أعضاؤه الحميمة وهو بيتكلم، بعدها راح الدولاب وفضل يلبس قمصان فوق بعض من غير مايلبس حاجة من تحت. قولت له وانا بخرج من الأوضة:
- شكرا..كفاية كده النهاردة.
ما لاحظش إني مشيت، وفضل يتكلم. طلبت من ممرض يساعد السيد بينوت في إنه يلبس، وحطيت ملاحظة في تقريري إن التمريض مهمل.

***

الساعة 4 ونص كنت لسه في المكتب بخلص شغلي أما دخلت عليا دكتورة آلن، وبدون ولا كلمة بدأت تحط أوراق في ملفات على مكتبها الي كنت قاعد عليه علشان بستخدم الكومبيوتر. قلت لها:
- الدنيا مشيت كويس النهاردة.
- السيدة جارنر بتقول عكس كده.
- السيدة جارنر بتقول اي حاجة.
لأول مرة كاسي تبص لي، وأدركت إن لها جاذبية مخفية تحت مظهرها المتعالي.
- ده حقيقي.
كملت شغلها وكملت أنا شغلي، وللحظة حسيت إني إرتحت لأني كنت صح بشأن السيدة جارنر. كملت كاسي كلامها:
- لكن مش دايما الحقيقة مهمة. لازم تكون ديبلوماسي أكتر مع فريق العلاج. لازم تتوافقوا مع بعض وإلا الشغل هايتعطل.

قولت من بين أسناني:
- يبقا تيجي معايا الإجتماعات أحسن ونشوف فين الدبلوماسية.

***

الساعة خمسة ونص وصلت آندي وجون وإستنوني عقبال ما أخلص شغلي، فضلوا يتكلموا عن القسم عندهم طول الوقت لحد ما قالت آندي:
- على مهلك، هانستناك تخلص شغلك. مش عايزينك تقع في مشكلة مع أمنا الغولة.
- أمنا الغولة؟
- أيوه، بيقولوا كده على كاسي عندنا!
ضحكت غصب عني وضحك جون. إستغربت آندي وقالت:
- إنت بتضحك أهو من غير ما وشك يشقق!
- وأنت مش رخمة للدرجة الي بتتظاهري بيها برضو.
- أنا عارفة إني رغاية، ومابقدرش أتحكم في نفسي، ويمكن سألتك من غير ما آخد بالي عن أهلك. فخلاص إفرد وشك وعديها.
طريق العودة كان أفضل من كل مرة، حكوا عن مرضاهم وحكيتلهم عن السيد السمين.. غفرت لآندي كونها تخينة ورغاية، وتغاضت هي وقاحتي وتعالي.. إتعلمت خلال الأسابيع الأولى وإتأقلمت، لكني ماكونتش شايف إلا الجزء الغامض من سيرسي، المظلم زي ماء المستنقع الي حواليها..

***

الخريف بييجي ببطء في المستنقعات. الحرارة بتشع من الأرض الرطبة وبتخلي الجو حر حتى في أكتوبر.
كملت في شغلي، وكملت كاسي في بُعدها.. في المرات القليلة الي كنت بشوفها فيها كنت بشوفها في المكتب، ونادرا ما كونت بشوفها في أي مكان تاني.
اليوم ده كان الجو ممطر، وشوفتها واقفة مع الشرطة. وقفت وسط مشيي وتراجعت للظل تاني. فضولي كان دافعني أسمع وأعرف في إيه زي طفل بيستخبى في ركن علشان يتصنت على أبوه وأمه.
الشرطي سأل:
- هو بقاله على الحالة دي قد إيه؟
جاوبت كاسي في برود:
- من ساعة ما جه هنا..للأسف المرضى بقا لهم حقوق دلوقتي ومانقدرش نربطهم في السراير زي زمان.
- واضح إن الي حصل له مش مسببلك أي إنزعاج.
- كان بيعاني من كتاتونيا، حياته مكانتش أحسن حاجة..السيد هارت مكانش واعي هو بيعمل إيه والي حصل حادثة مابين إتنين مرضى محدش كان مراقبهم..ايا كان جون بيلفينز فين دلوقتي فهو في مكان أفضل كتير من حياته هنا.
- السيد هارت عض لسان السيد بيلفنز وسابه ينزف لحد ما مات، ده شيء عادي ما يزعجكيش؟
- لا.
- القسم ده كان فيه حالات وفاة غير مفسرة كتير مؤخرا أو حالات قتل أو إنتحار؟
- القسم ده فيه عدد من المصابين بأعنف الأمراض العقلية في الولاية.. الحوادث بتحصل أكيد.
مال الشرطي عليها وهمساته لها بقت مش مسموعة بالنسبة لي. إترددت قبل ما اقرب خطوة أو إتنين في النور علشان أسمع. كاسي شافتني فرجعت للمكتب في الظل تاني. رغم إن الشرطي كان بيبصلها بنظرات كارهه، إلا إن نظرها فضل عليا، مابقتش حاسة بوجود الشرطي ولا أخدت بالها إنه مشي.
قعدت على مكتبي وفردت ورق الشغل قدامي، سمعت صوت خطوات كاسي بتقرب، حاولت أتجاهلها لكن صوتها فوقني من تركيزي.

سألتني في عدم إهتمام:
- إنت بتتصنت بقا.
- صعب أتجاهل مناقشة دايرة قدام باب المكتب.
- دكتور بلاك، مش عايزة أشوفك تاني بتستخبى في الأركان، واضح كلامي؟

***

والده مراتي، السيدة صَدَف، كانت من الثوريين في الستينات، قبل سيادة الثقافة الغربية وتعلم الهنود إن في حرية للنساء المقيدات بتقاليد الإسلام الي توقفت عن التطور من مئات السنين.
صدف هربت من أهلها علشان تتجوز أبو بريا، فرانك. أهلها إتبروا منها سنين وعاشت في منفى بسبب الحب.
ده الي حكيتهولي بريا عن أمها، وشايف إن الي حصل مايتصدقش. صدف الي اعرفها عبارة عن كتلة قلق وعُصاب. كانت بتلبس الساري وتمارس تقاليد الهنود بشكل متطرف علشان تفضل وفيه لتراثها. صدف كانت قريبة جدا من عيلتها في أمريكا وكانت بتسافر من وقت للتاني الهند علشان تشوف أهلها اللي هناك.
كانت بتجبر جوزها يضحي بكتير من ثقافته وتقاليده علشان يواكب تقاليدها هي، وكانت مقيداه بالشعور بالذنب تجاهها كونها ضحت بكل حاجة علشانه.
علشان كل ده، إتجوزتني بريا في مراسم هندية مسلمة بكل تقاليدها. لبست سبع فساتين فرح على مدار الإسبوع الي سبق زفافنا، فساتين مشغولة بخيوط الدهب، ماكونتش بقدر أبصلها وهي لابساهم من كتر الإزعاج الي بيسببهولي شكلها. عملوا ليلة حنة للستات بس، ومكانش المفروض أحضرها معهم.
حسيت إن ماليش مكان في الإحتفالات دي وأنا بتلصص عليهم وأشوف الستات قاعدين حوالين بريا الي كانت قاعدة على سرير متغطي بالحرير الهندي، وشعرها متغطي بطرحة وضامة ركبها لصدرها وهم بيحطولها الحنة على رجليها. كان بيغنوا أغاني غريبة وغمروا بريا بمشغولات ذهبية قبيحة.
طول ليلة الحنة كان في عنكبوت واقف على الحيطة وراها. راقبت العنكبوت وهو بيغزل بيت وسط الدوشة والألوان دي كلها، كان بيلف خيوطه زي ما الستات الهنديات كانوا بيلفوا نفسهم بالقماش الملون المبهر.
العنكبوت بيغزل رسوم الحنة المعقدة على جسمها.

كنت عايزها زي ما العنكبوت كان عايز حشرة ياكلها.. كنت عايز ألفها في خيوط شبكتي..كنت عايز أمتلك كل الدهب والألوان والبشرة الخمرية المذهلة وكل ما هو بريا.
إستحضرت إحساسي وشبقي يوم الحنة علشان أصرف غضبي تجاه أم بريا الي كانت قاعدة قدامي على العشا النهاردة وبتوعظني عن إزاي أخلي بالي من مراتي وإزاي إني لازم أقضي وقت أطول معاها.
خلصت عشايا ودخلت مكتبي وتظاهرت إني بقرأ لأني ماكونتش قادر أركز في قراءة حقيقية طول ما شريط صدف عمال يتعاد في دماغي.
في الشهر ونص الي عشناهم في موبيل، ألاباما، صدف قعدت معانا خمس أيام كاملين، وباتت عندنا 14 يوم منهم.
سألت بريا:
- إنت ليه سايباها تكلمك بالطريقة دي؟
- على عكسك، أنا بحترم عيلتي..مش هاينفع أبدا أطرد أمي لمجرد إن كلامها مش مقنع بالنسبة لي.
- هي مش بس بتقول أي كلام، دي بتمسح ثقتك بنفسك.
- أنا أعرف إزاي أخلي كلامها ما يأثرش فيا.
- لا كلامها بيأثر فيكي! بتفضل تقطمك وتحسسك بالذنب علشان من وجهة نظرها مابتقدميش إهتمام كافي لعيلتك..عيلتها..أو بتنسي شوية تقاليد هندية عفا عليها الزمن ومابقاش حد بيعملها أصلا.
- إيه مشكلتك؟ حد طلب منك حاجة؟ أنا بهتم بتقاليدي وميراثي.
- إنت مسلمة ومسيحية في نفس الوقت ومع ذلك مش مؤمنة بالدينين!
- ماعنديش مشكلة في كده..إيماني بيحدده إحساسي وتقاليدي ومحافظتي على جذوري من ناحية أمي وأبويا. عموما أنا آسفة لو وجود أمي ضايقك. لو كده أنا هابقا أروحلها وأقضي معاها أجازات نهاية الأسبوع. أمي مريضة وكبيرة في السن وعملت حاجات حلوة كتير أوي في حياتها وتستاهل الإحترام.
- أمك بتعاني من إضطراب الشخصية الحدية والهستريا، والسبب الوحيد الي بتفضل تولول على مرضها قدامك إنها عايزة تلفت نظرك لها هي وبس.
- إنت إتجوزتني ليه؟
- نعم؟
- إتجوزتني ليه؟
- علشان بحبك.

- لو بتحبني هاتقدر كل حاجة حواليا بما فيها أمي.
قالتها بريا وهي بتبص ناحية صورة أمها. الصورة كانت مقرفة وصدف فيها مترهلة وعجوزة وقبيحة.
- انا ماعنديش عداء شخصي مع أمك. كل الي بقوله إنها مش عامل إيجابي في حياتك..بتخليكي تحسي بالذنب وإنك وحشة ومقصرة.
- ما أظنش يهمك أحس بإيه. ما أظنش إنك بتفكر في أي حد إلا نفسك. لو كنت بتفكر فيا كنت فكرت في إحساسي أما بتسيبني كل يوم لوحدي لحد الساعة 8 بليل من الساعة 7 الصبح. أما بترجع البيت بتفضل تتكلم عن الشغل. عارفة إن شغلك وتدريبك مهمين، بس أنا عندي إختيار دلوقتي ومش مضطرة أعيش لوحدي على طول كده..لو أمي جت قعدت معايا تقول إنها وحشة ومعرفش مالها، لو خرجت مع صحابي تقول إنهم بيودوني اماكن خطرة وبيعرضوني لعوامل سلبية في المجتمع! كل الي إنت عايزة إني أفضل مستنياك وبس!
- أنا مش مصدقك..أنا ضحيت علشانك كتير أوي..سيبت تدريبي في مكان محترم، ضحيت بوقت كتير كان المفروض أذاكر فيه وأحسن قدراتي علشان أقعد مع أمك وقرايبك..ضحيت بحريتي وحياتي..كان ممكن أختار أي ست تعجبني..اي ست..بس إخترتك إنت.
- إنت مغرور!
بريا كانت غاضبة ومتقززة من كل الي سمعته. كانت بتبص لي كأنها أسد بيستعد للهجوم.
- وإنت لعبة في إيدين أمك.
- يا سلام !على رأي واحد قضى عمره كله بيحاول يبقا نسخة من ابوه!
ساعات بسأل نفسي وصلت لحد فين في تاريخه المشرف؟ بتقلد شغله أهو، ياترى وصلت لفقرة الشرب والخيانة ولا لسه؟ مستني مني أبقا زي أمك؟ تمثال جميل على الرف!
معرفتش أرد عليها بإيه، عمرها ما كانت كده ونادرا ما كانت بتعلق على عليتي أو تصرفاهم. ماكونتش واعي إنها عارفة كل ده عنهم، معرفتها قلقتني.
- تعرفي إيه عن حياة أبويا؟
- والدتك ست وحيدة والكل عارف إنك الوحيد الي بيسري عنها.
بريا لأول مرة تكون باردة وقاسية كده، فكرتني بكاسي وعينها الباردة ..مراتي بقت "أمنا الغولة".

- لو كنت إتكلمتي مع والدتي فالصورة الكاملة ماوصلتلكيش. مستقبلي وشخصيتي مالهوش علاقة بالماضي..بالإضافة إلى إننا كنا بنتكلم عن أمك إنت.
- أيوه صح..أمي..أمي محتاجاني..فإما تقبل تيجي تقعد معايا كل كم يوم وإما توافق إني أروح أقعد معاها.
- ماكونتش عارف إن الموضوع مهم بالنسبة لك.
- أنا مش عايزة أبقا وحيدة أما أوصل سنها. عايزة أولادي يكونوا حواليا. اعتقد إنك بقيت زي ما كان نفسك تبقى، وانا عايزة احقق حلمي مع أولادي.

إبتسمت لها وبوست جبينها، وخرجت من النقاش حاسس بتنميل روحي. عدى عليا كل الأماكن الي كان ممكن اروحها لولا وجودها، كل الحاجات الي كان ممكن اعملها..
قلت لنفسي إني بحبها، وإني عاهدت نفسي أكون مخلص..
لكن الأمر بقا مرير..

***

كاسي كانت مشرف ممتاز من عدة جوانب، كان بتقرا كل تقاريري قبل ما اعرضهم في إجتماعات تخطيط العلاج. كنت بتعلم منها أشخص واساعد وأكتب تقرير يرقى للوحات الفنية. كانت بتسيب لي ملاحظات مكتوبة تساعدني أختار الأسئلة الي هاسألها للحالات..كانت طبيبة نفسية شاطرة.
مع مرور الشهور، إتعودت على الروتين في سيرسي وأي تغيير فيه بيقل راحتي، بس من قال إن الطرق الصخرية سهلة؟ هي ضرورية لصقل المواهب وتجديد العزيمة، وكاسي كانت زي الطرق الصخرية.
كاسي إتغيرت وبقت بتيجي المكتب كل يوم الساعة أربعة وربع، وتلقي عليا أوامر جافة وقحة وتمشي، والخميس ده مكانش مختلف عن باقي الأيام الغريبة الي فاتت. قالت لي ببرودها المعتاد:
- سمعت إنك قولت لكاتي إنها بتتصرف بطريقة غير لائقة أثناء جلسات العلاج النهاردة.
- كانت بتحكي للحالات قصص من حياتها الشخصية، وده مش مهني وغلط.
- إنت صح.
- عارف.

إبتسمت ابتسامة غريضة وخلعت النظارة لأول مرة، وبان جمال ملامحها.
قالت:
- إنت عيل مغرور..
ملت ناحيتها وإبتسمت وقلت:
- عارفة، لو بلغت دكتور بابكوك عن الطريقة الي بتعامليني بيها أعتقد إنك هاتلاقي نفسك في مشكلة كبيرة. إحنأ في تدريب رسمي معتمد وله حدوده وقوانينه. من القوانين دي: الإشراف المستمر..وإنت ما بتشرفيش عليا بشهادة الكل ومحدش شافك بتشرفي عليا وأنا بعالج أو بشخص، لذلك ما أعتقد إنه من غير اللائق كمان تقولي على طبيب متدرب (عيل).
-هاتعمل إيه يعني؟ هاتروح تعيط لطنط بابسي وتقولها إني بعاملك وحش؟ إنت فاكر إنك أول متدرب يشتكي مني؟ محدش يقدر ياخد حق ولا باطل معايا، ورقي سليم وعارفة القوانين كويس. بس عموما هأسحب كلمة إنك عيل، لأنك أول متدرب إسترجل ووقف قدامي وهددني قبل ما يروح يعيط لطنط..أغلب الرجالة بيخصوهم أول ما يتولدوا باين اليومين دول.

تراجعت وراح الكلام مني..مش فاكر أي موقف قريب كان فيه حد قدر يخرسني كده. قالت لي:
- تحب تتعشى معايا؟
- أكيد.
إتصدمت بس كان في إستمتاع خفي كده..أنا دخلت دايرة مافيش متدرب دخلها قبلي. حسب كلام كل الي هنا، فدكتورة آلن عمرها ما تفاعلت ولا قربت من اي متدرب من أي جنس. كانت ملكة التعامل عن بعد وتصحيح التقارير بالقلم الأحمر بدون نقاش. بشكل ما حطيت جوه متاهة عالم جديد، وكنت فيه الأول والوحيد. سألتها:
- هانتعشى فين؟
- في مطعم أول الطريق..معاك عربية ولا بتركب مع صحابك؟
- مع صحابي للأسف.
- هاوصلك.
- أوكي.

***

قعدنا في مطعم صغير شبه خالي. سألتني كاسي وهي بتلعب في طبقها بالشوكة:
- إيه رأيك في ستنا سيرسي؟
- ستنا؟
- إنت مش شايف إنها ست صح؟ بس بأكدلك إنه سيرسي ست.
- عاجبني الشغل في سيرسي طبعا إتعلمت كتير، وعندنا حالات متنوعة فعلا. بس مابشوفكيش بتشتغلي يعني مع الحالات.
- مش معنى إنك مش بتشوفني بشتغل إني ما بشتغلش يا دكتور بلاك. إنت بتشتغل في اي دور؟
- الاول والتاني..إختبار ده؟
- في إيه في الدور التالت؟
- الحالات الأخطر.
- تفتكر إنهم مش محتاجين لدكاترة هناك يكونوا أكثر خبرة من مجرد متدربين لسه كوافيلهم ما نشفتش؟
- تصدقي ما جاش على بالي ده.
- طبعا ما يجيش على بالك. الفكرة كلها من احتياجي لمتدرب هي اني عايزة حد يمسك الحالات المستقرة والشغل الورقي علشان اركز في الأهم.
- دكتور يوشي معاكي في التالت؟
- لا..التالت له فريق لوحده.علشان المحامين ما بيحبوهوش!
- محامين؟
- هاحكيلك موقف..واحد من مرضى التالت جاله مزاج يدخن، واحنا مابنسمحلهومش بأي أداة ممكن تتسبب في حريق، لكن مرضانا مبدعين بقا! فتح فتحة في السقف وطلع سلك الكهربا وولع في شعر زميله في الأوضة وولع منه السيجارة! تفضل بقا تضبط في الورق والشهود علشان مايبقاش علينا قضية والمستشفى تقفل. علشان كده المحامين ما بيحبوش التالت ولا نزلاؤه.
- علشان كده البوليس كان هنا؟
- الحوادث بتحصل في التالت ومحدش يقدر يتفاداها زي ما إنت شايف.
- الناس بتقول عليكي باردة وماعندكيش إحساس..
- شكرا!

- انا بقولك كده علشان أسألك، ليه عزمتيني على العشا؟ ليه غيرتي تعاملك معايا؟
- بختبر نظرية كده.
- عن إيه؟
- طبيعة العلاقة الإشرافية.
- فعلا؟ ممكن تفاصيل أكتر؟
- في نظريتي بفترض إني ممكن أحسن أداء المتدرب عن طريق توثيق العلاقة به..إنت الي بختبر عليه نظريتي.
- مش هاتقدري تحصلي على نتيجة لو عينة الإختبار مكونة من شخص واحد بس.
- أنا من مدرسة كارل يونج، وبعتقد في قوة دراسة الحالة المنفردة.
- لا إحنا كده ممكن نتناقش طول الليل.
- متجوز؟
- ايوه.
- عندك أولاد؟
- لا
- مبسوط؟
- نعم؟
- مبسوط في جوازك؟
- ايوه. جدا.
- مش حاسس إن الجواز قفص وحبسة؟
- أبدا.
- أنا بعتبر الجواز علاقة مُطلقة..الجواز هو طريقة المجتمع لتقنين الشهوة الجنسية. الجنس تابو في ثقافات كتير وعيب. الأنا العليا تم ترويضها من خلال الدين والقيم القديمة وإقناعها إن الجنس شيء قذر.
الجواز بقا كان طريقة المجتمع لإباحة الشهوة الجنسية. دلوقتي المجتمعات الحديثة مش محتاجة تراوغ أو تشرع حاجة في الأصل غريزية، فليه لسه متمسكين بفكرة الجواز وطقوسه والإلتزام طول العمر بممارسة الجنس مع شخص واحد بس؟ الجواز فكرة مش سليمة وفي ناس كتير بدأت تبعد عنه. المستقبل لا يدعمه سوى الأم الوحيدة الناجحة أو الأب الوحيد الناجح، مافيش ضرورة لوجود أب وأم لتربية أولاد.

هزيت راسي ومش عارف المفروض أقول إيه. أنا مختلف معاها بس معنديش نقد معين لكلامها ده لأني عمري ما فكرت فيه. سألتني:
- تفتكر كان هايبقا في ضرورة إنك تتجوز مراتك لو كنت عشت ومارست الجنس معاها كواحدة من ضمن عدد كبير من الستات الي عملت معاهم نفس الشيء؟ هل إختيارك ده صح وإنت ما جربتش غيرها؟
- بس أنا بحب مراتي.
- دي مش إجابة.
- ما أعتقدش إنه سؤال يندرج تحت بند علاقة المشرف بالمتدرب.
- إحنا بنحاول نطبق نظريتي ونعرف بعض أكتر.
- أعتقد إنك مش متجوزة.
ردت بدون تردد:
- لا.
- ولا عايزة تتجوزي.
- صح.
- ومافيش أي رغبة عندك في شخص تحبيه وتتكلمي معاه بليل.
- أقدر الاقي الشخص ده وقت ما أحتاج وأتخلص منه وقت ما يكونش له دور في حياتي.
بدأت أحس بعدم الراحة. مستوى الحميمية في الكلام بقا شبه خروجة تعارف ومصاحبة مش علاقة شغل. بعدت الكرسي شوية وحاولت أتفادى تلاقي النظرات.
- كلامي مضايقك؟
- مافيش حاجة تقدر تضايقني.
إبتسمت تاني. كانت عارفة إني بكدب، كان مش صح إن علاقتنا تبدأ بكذب، بس هي الي بدأت بالكذب. خروجتنا سوا مكانتش نابعة من إهتمامها بعلاقة المشرف والمتدرب، ولا كان قصدها أي نوع من العلاقات الإنسانية..أهدافها كانت غامضة ومزعجة.
- أعتقد إني هنا علشان بتعلم منك كمشرف وبس.
- وإنت تلميذ شاطر.
- شكرا لك.

- هاتعمل إيه أما تخلص تدريب؟ هاتشتغل في عيادة لوحدك؟ هاتعمل دكتوراه تانية؟ هاتشتغل زينا؟
- أعتقد إني هابدأ في مجموعات علاج مع دكاترة تانيين لحد ما أجمع مرضى وأفتح عيادة.
- نفس الإجابة!
- نفس إجابة إيه؟
- كلكم حاطين عينيكم على عيادة. كلكم عايزين نفس المستقبل.
- كلنا مين بقا؟
- كل الي جم سيرسي، ومعرفش من فيهم وصل لهدفه ومن لا.
- وده شيء غلط إن الواحد يحب يكون عنده عيادة؟
- لا..بس حياة مملة..نفس المرضى كل يوم بنفس درجات الخطورة..مرضى أغنياء متدلعين، مرضى مش مرضى أصلا..مراهقين زنانين كل مشكلتهم إن ماعندهومش كل حاجة.
- أنا بحب الحياة العادية الروتينية..بتريحني.
- بس إنت بتحب شغل المستشفى.
- حتى شغل المستشفى ممكن يبقا عادي وروتيني زي العيادة.
- لا..مش زي ما إنت فاكر. إنت بتفكر بشكل سطحي وحاسس إن الجنون حاجة بعيدة عنا والمجنون بيتولد مجنون لحظة ما بتقع عينك عليه. عندك مثلا السيد جيليز، كان مقاول ناجح لحد ما دماغه أتخبطت جامد في الشغل، فجأة مابقاش قادر يلبس نفسه حتى. صحتنا العقلية في توازن ضعيف وحساس جدا. بنقف على حافة هاوية الجنون وبنفتكر، كدكاترة نفسيين، إننا عارفين سبب تدهور حالة واحد وقع قبلنا في نفس الهاوية أو سبب إن واحد تاني لسه قادر يمشي على الحافة بنجاح....محدش أبدا يعرف الأسباب.. كل مريض فصام مختلف عن غيره، عصبيا ونفسيا وسلوكيا. فكرت ماذا لو إن كل ده مش مصدره المخ؟ ماذا لو إن في شيء أكبر هو الي بيحدد مصيرنا؟!
- أنا معرفش أي شيء ممكن يتحكم في مصير البني آدم كده..مافيش دليل واحد على إن في شيء غير التوازن الكيميائي او الشذوذ التشريحي ممكن يسبب الفصام.
- في السما والأرض أكتر من الي ممكن تفسره بعلمك أو تحلم بيه يا دكتور بلاك! إنت متصور إن أي شيء لا يمكن إحصاؤه أو دراسته بالتجارب يبقا مش موجود.

- أنا أعتقد إن كل شيء محتاجين نعرفه في علم النفس قابل للإحصاء والتجريب. أي حاجة تاني سايبها للفلاسفة، وأنا مابحبش الفلسفة عموما.
- خسارة..أنا بعشق الفلسفة رغم تفضيلي لعلم الإجتماع..ما إتأخرتش على مراتك؟
كنت فقدت الإحساس بمرور الوقت، وكان لازم اروح ولازم الحق ارتاح قبل الشغل تاني يوم. دفعت كاسي تمن العشا وساقت بيا عربيتها في الطريق المظلم لحد ما وصلتني البيت. نزلت أنا، رفعت هي إيدها وودعتني، وفضلت واقف أبص عليها وعربيتها البي إم دابليو بتبعد..عاديتها بدأت تذوب في عينيها، وبدأت أشوف بشرتها المشعة تحت شعرها الذهبي..كل شيء فيها إختلف..

***

بريا كانت بتلعب تمارين تاي بو أما دخلت البيت. ماقلتليش أي حاجة. جبت بيرة وقعدت على الكنبة أشربها وأتفرج عليها كعادتي. بعد ما خلصت تمرينها قفلت التليفزيون وبصت لي.
- الساعة حداشر تقريبا، وانت ماكونتش في الشغل. كنت فين؟
كانت بتسأل بدافع الفضول مش الغضب.
- أخيرا قدرت أخلي دكتورة آلن تعترف بقدراتي وشغلي. قالت إني واحد من أفضل المتدربين الي أشتغلت معاهم، وعزمتني على العشا.
- متأكد إنها مش بترسم عليك؟
ضحكت وقلت لها:
- لو بس تشوفي الست دي ماكونتش تقولي كده. هي أصلا باردة ومش قادر أتخيل إنها ممكن تكون عايزة مني حاجة من الي بالك فيها.
- مش إمبارح كانت لسه كاتبة فيك تقرير زي الزفت؟ المهم ماما سابتلك الظرف ده.
طنشت الظرف، مش وقته، ونمت مع بريا رغم إلحاحها إني أفتح الظرف.
بريا بعدها خرجت تتفرج على التليفزيون وفتحت أنا الظرف. الخطاب كان مرتب ومكتوب بحذر. بإختصار كانت بتتكلم عن حبها لبريا ووصفتها بأنها طفلتها وبتاع، وكانت كاتبة بالنص (بريا فاكهتي المحرمة التي نبتت من حب سري) ووصتني أخلي بالي من بنتها لأن مالهاش حد غيرها.

***

حلمت تاني النهاردة..
نفس الست بعروقها السودا الي بتنبض تحت جلدها. عينيها كانت سودا كانها مليانة حبر.
قالت لي:
- اتبعني...
مشيت وراها بدون إرادة مني، كنت أسير قوانين الحلم. قادتني عبر ممرات وأروقة متربة ومليانة سراير مستشفى قديمة. طلعت السلم وكانت خيوط العنكبوت بتلزق في وشها طول ماهي طالعة، وما أدركتش إحنا رايحين فين إلا أما وصلنا.
سألتني:
- أتراه؟
بصيت من فوق البرج العالي في سيرسي، وشوفت مباني المستشفى تحت رجلينان نايمة وسط الضباب. قلت لها:
- أنا شايف سيرسي.
زحفت الخنافس من أنفها ووقعت عند رجليها وجريت على رجليا وتسلقتها.. وكنت مشلول..
هزت راسها وبدأت تبعد وتاخد حشراتها معاها. قالت لي:
- أنت واحدٌ منا..ملكنا..
صوتها كان فحيح، ماتقدرش تحدد إن كان صوت راجل أو ست. طرف لسانها المشقوق فضل يتهز قدامها كأنه عايز يهرب منها. هزيت راسي في رفض وقلت:
- لا أنا مش واحد منكم!
إختفت وأنا بفتح عينيا وبلاقي نفسي في السرير وضوء النهار منور الأوضة. بريا كانت جنبي والعالم حواليا زي ماهو..بس أنا نمت والشباك مقفول، من فتحه؟
بصيت من الشباك وعينيا جت على شبك العنكبوت في الجنينة، واستعدت كلام الست الي في الحلم تاني، كأنها صدمة طفولة قديمة مش راضية تتنسي.
الكلب شافني صحيت بدأ ينبح، خرجته للجنينه وفضلت أبص عليه وهو بيلعب ويجري. أما خلص لعب وعمل حمام، دخلته تاني علشان يقعد في مكانه المفضل تحت رجلين بريا، دايما بيحبها أكتر من قدرتي أنا على الحب.

نزلت أجري، وحاولت أنفض دماغي خالص..بتخيل اي مكان بحبه قدامي وبجري عليه، وده بيفكرني بالمرة الوحيدة الي فشلت فيها، اما ماقدرتش أطلع قمة إيفرست ، ومافيش حاجة خليتني محرج في حياتي قد فشلي ده.
الفشل مكانش غلطتي، كان غلطة بريا..كانت معايا في الرحلة دي ومكانتش أكلت حاجة من ساعة ما وصلنا ارتفاع عشرة آلاف قدم، بدأت تتعب وترجع..وماكملناش..
جسمي يقدر وعقلي يقدر يتسلق اي جبل أنا عايزه، وقلبي كره إني فشلت بسببها.
بمجرد ما أخدت حمامي ولبست هدومي وسلمت على بريا قبل ما أخرج، حسيت إني عايز أرجع السرير معاها تاني..المشاعر وحش متلاعب!
المرة دي ركبنا عربية جون. أول ماركبت قالت لي آندي:
- يعني تقلبنا إمبارح علشان تروح البيت مع آلن؟!
- ما تسأليش..انا عبد المأمور.
- مش إجابة دي! احنا محتاجين معلومات، ونستاهل التعب معلش..احنا فضلنا مستنيينك لحد ما تخلص عبوديتك عند دكتورة آلن، يبقا نستاهل تتعطف علينا وتفهمنا!
- فعلا معرفش، فجأة اتغيرت وبقت لطيفة. قعدت تمدح شغلي وقالت إني أحسن متدرب قابلته وعزمتني على العشا.
قال جون وهو بيضحك:
- ايوه يا عم..الي عدّى عدى!
قالت آندي في فضول:
- ايوه..عديت بقيت فين بقا؟! ده الي محتاجة أعرفه. عاملة ازاي بقا أمنا الغولة؟
- عادي يعني..بتتكلم كتير.
- بتتكلم عن ايه؟
- اي حاجة ..كلام فاضي.
- يعني ايه كلام فاضي؟
- مثلا شايفة ان الجواز نظام فاشل المجتمع حطه علشان يشرع الجنس ويحمي الأنا العليا..كلام من ده.
- الهري بتاع فرويد يعني.

- بس هي مثيرة للإهتمام..افكارها وثقافتها..هي عندها كم سنة؟اربعينات؟ جيلها بيحبوا سكة الفلسفة دي والتحليل النفسي. دماغها حلوة فعلا، بس اصغر من السن ده. تفكيرها كأنها دخلت جامعة سنة خمسين مثلا..هي الي افكارها قديمة.

***

الساعة واحد تقريبا، دخلت دكتورة آلن مكتبها وهي شايلة كوم ملفات حطته على مكتبها. ماكونتش متوقع معاملتها تتحسن بعد عشا إمبارح، فسكت لحد ماهي قالت:
- طلبت من كاتي تمسك شغلك النهاردة. تحب تيجي معايا في جولة في التالت؟
- كنت فاكر إنه مش مسموح للمتدربين يدخلوا الدور التالت.
- مش لوحدهم..إنت هاتكون معايا. المتدرب ممكن يساعد في التالت لومعاه مشرف على طول.
أغلب الناس بتتخيل إن مستشفيات الأمراض العقلية زي ما بيشوفوها في الأفلام..أوض مبطنة، قميص بأكمام طويلة رابط المريض في بعضه، دكاترة منكوشين ومجانين. لكن دي صورة بعيدة خالص عن الواقع من خلال شغلي في كذا مستشفى أثناء الدراسة.
لكن، في الدور التالت الوضع كان مختلف، وكانت أول مرة أشوف فيها أوضة مبطنة! المكان ده بيحطوا فيه المرضى الي ممكن يأذوا نفسهم وهم في مرحلة هياج. التحكم كان اكبر في كل تفاصيل المكان، مكانش في كراسي أو أي اثاث مش متثبت بمسامير في الأرض. المرضى مكانش عندهم رفاهيات ولا لهم حريات زي باقي مرضى الدور الأول والثاني. كان جو مغلق محكم.
قالت لي كاسي:
- كل المرضى هنا موجودين بأمر قضائي.
شاورت كاسي على شابة قاعدة قدام التلفزيون:
- دي ليلى، طعنت جوزها سبع مرات في ضهره، بقالها هنا سنة وبنحاول نلاقي مجموعة علاج منزلية مناسبة لها. مانقدرش نحتفظ بأكتر من 100 مريض هنا ومضطرين إن حد عنيف زي ليلى يتعالج في البيت علشان مافيش مكان.

شاورت كاسي لست تانية بترقص قدام اوضة التمريض وقالت:
- دي نيتا، خلي بالك منها. عندها إيدز وبترفض تاخد الدوا. بنتضطر نكتفها كل يوم ونحقنها بالدوا. كمان بتحب تخربش الناس وتتف في جروحهم علشان يتعدوا. لو ما طالتش تخربشك هاتعور نفسها وتلطخك بالدم بالعافية. هي مش مقتنعة إن عندها إيدز وشايفة إننا كلنا بنتآمر عليها علشان نمنعها تمارس الجنس. كانت فتاة ليل وبمجرد ما تطلع من هنا هاتنام مع أي راجل يديها قرشين. هاروح المحكمة بكرة، لازم أشهد بحالات المرضى الي تبع المحكمة وتطورهم. قول للسيدة جارنر ودكتور يوشي إنك جاي معايا علشان يشوفولك بديل.
- شكرا لك..
قضيت باقي اليوم بتكلم مع مرضى كاسي، وكانت بتحب الدور التالت لأنه بيمنحها حرية أكبر في علاج المرضى. في نهاية اليوم أتمشينا سوا بره المستشفى، والغروب رجعلي ذكرى حلمي تاني وقبض قلبي.
قالت لي:
- إستثنائي..صح؟
-هو إيه؟
- المكان ده..دورت سنين لحد ما لقيته.
- كنت بتدوري على إيه بالضبط؟
- كل حاجة..المرضى، المباني، التاريخ، الحرية..بص حواليك..إحنا شغالين في متحف، جزء من التراث المنسي..تقدر تحس بالموتى بيبصوا عليك من الشبابيك..الشغل هنا ممتع.
بصيت حواليا للمباني الي مش شبه بعض وللمرضى. بصيت على الحيطان المتهالكة المشققة والأشجار المسودة والمرضى ماشيين زي الأشباح بينها..
ولا إحنا الي أشباح؟
- أنا إشتغلت في خمس مصحات قبل دي..شايف المبنى ده؟
- المبنى القديم بتاع الحالات الحادة؟
- أيوه..ده كان مكان خاص بالمرضى السود. طبعا كان في مستشفيات أحسن في الشمال وكان بيروحها البيض بس. المكان ده مكانش مخصص بس للمرضى السود، لأ، كان بيتحجز فيه اي شخص أسود يضايق البيض. طبعا زمان الرجل الأسود مكانش له حق التصويت او رفع قضايا على البيض. كان في أكتر من 3000 مريض هنا. ده طبعا كان زمان أوي.

كاسي كانت بتحاول تاخدني معاها في رحلة زمنية للماضي. مدت إيدها وشاورت حواليها وقالت:
- كل الأراضي الفاضية دي والمستنقعات كانت مزارع قطن زمان والمرضى كانوا بيستلقوا في الشمس ويتفرجوا على المنظر الجميل ده، وكان السود بيشتغلوا عبيد في الأراضي دي مجانا طبعا..
- إنت ليه كنتي بتدوري على مكان تاريخة إسود بالمنظر ده؟
مالت كاسي وحطت إيدها على حيطة المبنى الي جنبنا وقالت:
- علشان المكان ده فعلا مسكون وحزين..مش حاسس؟
- أعتقد إنك محتاجة قرص زيبركسا.
كاسي ما التفتتش ليا، ضغطت بإيدها الحيطة الباردة وقالت:
- قد إيه صعب إنك ما تؤمنش بحاجة إلا بنفسك؟
- مش فاهم السؤال.
- طبعا مش فاهم. لو كنت فاهم ماكونتش سألت..لازم تروح بيتك، مراتك هاتقلق عليك.
- مابقتش سعيدة معايا مؤخرا. شايفة إني بشتغل كتير.
- ده صحيح..إنت بتشتغل أكتر من اي حد تاني، لكنك عمرك ما اعترضت.
- ماعنديش مشكلة أشتغل لوقت متأخر.
- شكلك مش مستعجل ترجع بيتك.
ما رديتش عليها، ماكونتش عايز ارد. انا عمري ما استعجلت علشان ارجع بيتي وماعنديش تفسير لده. انا بحب مراتي، بحب وجودي معاها. ماكونتش عايز اتفاداها لكني ماكونتش برضو شايفها حاجة الواحد يستعجل يرجع البيت علشانها...تفكير مالوش تفسير.
مشينا ناحية ساحة إنتظار العربيات، قالت كاسي:
- يمكن إنت بتفكر فيها كحيوان أليف مش زوجة..شيء بتستمتع بوجوده لكنك مش مضطر للإلتزام بشيء ناحيته.
إلتفت لها في عصبية وقلت لها:
- إسمعي، أنا إستحملت قرفك كتير بس مش هاستحمل كلمة واحدة عن بريا. أنا بحترم رأيك العلمي بس مش لائق أبدا تفترضي إفتراضات زي دي عن إحساسي بيها. إنت ماتعرفيناش، وإنت مجرد مشرف عليا مش طبيبي النفسي.
- كلامي جه على الجرح هه؟
- قلت لك كفاية!

- بسأل فضول مش أكتر.
- مش فاهم؟!
- إنت فضولي وفاهم أما الواحد يشوف حالة مثيرة للإهتمام ما بيقدرش يمسك نفسه.
جالي نفس الإحساس الي حسيت به أول مرة أقابلها..مشلول ..
علاقتنا كانت غريبة، انا اقدر اقدم فيها شكوى، أو أحط حدود للتعامل المهني بيننا..لكني ماعملتش اي حاجة تجاهها..وقفت مكاني ابص لها وخلاص.
- تحب تاكل حاجة؟
- انا هاروّح مع جون وأندي النهاردة.
- طيب بكره؟
- هاشوف.
ابتسمت لي وقلعت النضارة. ضوء الغروب خلاها أجمل. نحافتها إتحولت لجمال جسم العارضات، عينها الباهتة بقت بحيرات شيطانية، ابتسامتها لمعت وسط بشرتها الرخامية واديتها مظهر مصاصي الدماء المرعب والمغري.
رغم إني لاحظت كل ده إلا إني اقنعت نفسي إني ماشوفتش حاجة. اقنعت نفسي إني مش عايز منها حاجة إلا شهادة بكفائتي تساعدني في شغلي. قلت لنفسي إني عايز أكون معاها علشان ابقا أحسن متدرب شافته في حياتها.
معرفتها كانت خطوة في طريق مستقبلي مش أكتر..

***

في طريقي للبيت، سألتني آندي:
- بتتمشى أنت والدكتورة آلن في الغروب هه؟
سألتها في برود:
- مش فاهم عايزة تقولي إيه.
- شوفتكم وانتوا بتتمشوا، خلي بالك كلام الناس هايكتر.
- مافيش حاجة الناس تتكلم عنها، كل الموضوع إني بجاريها علشان ما تقلبش عليا. ست مجنونة فاكرة أن سيرسي مسكونة!
- خلاص ابقوا إعزمونا نتمشى معاكم، إنت عارف إني بحب أعرف عن تاريخ سيرسي.

- مجرد ما تجيبوا سيرة سيرسي هاتلاقوها إتفتحت في الكلام.
- إنت هاتوقع نفسك في مشكلة، مدرك ده؟
- كبري دماغك.
- أها! الرد الأكثر شيوعا لأي حد بيتمسك وهو بيعمل عملة! إنت بتنام معاها صح؟ علشان كده بتتأخر؟
- لا طبعا أنا رجل متجوز! لو خنت مراتي هاتسيبني وحياتي هاتتدمر.
- أخيرا إتكلمت عن حاجة في حياتك! الست حلوة وإنتوا بتقضوا وقت زيادة عن اللازم سوا مؤخرا.
- ست غريبة، شايفاني حالة من ضمن حالاتها..بس مافيش إنجذاب جنسي بيننا يعني.
جون قال أخيرا:
- مصدقينك..إحنا بس مستغربين إنها تبقا كويسة مع أي حد اصلا.
- عارف، بس يمكن لأني بتفانى في شغلي فبتهتم بيا يعني.
- و يمكن بتهتم بك بغض النظر عن شغلك..تكون وقعت فيك مثلا.
- لا مافيش الكلام ده..لازم تعرفها كويس علشان تفهمني.

***

ماروحتش إتعشيت مع كاسي تاني يوم، إتهامات آندي فضلت متعلقة قدامي. حاولت أتحاشى النظر لكاسي ومابقتش أقضي معاها وقت لوحدنا، وكاسي مكانتش ملاحظة تغييري. فضلت تسيبلي ورق عليه ملاحظاتها وتبتسم في مكر أما بقولها إني بفضّل أشتغل شغلي العادي ومش حابب اروح معاها التالت.
منحتني كاسي إسبوع من السلام، ورجعت تعاملني ببرود زي زمان. رجع مكتبى خنيق ودمه تقيل. بقيت بروح البيت بدري وبريا بقت بتحضرلي العشا وكله كان طبيعي.
لكني كنت بحس إن بحبس أنفاسي وأنا مع بريا، وبلاقي عقلي بيروح أماكن كنت فيها مع كاسي. حاولت ما أبنش شرودي لكن بريا دايما كانت بتقدر تشوف الي جوايا. قالت لي:
- حاسة أنك متغير، سرحان بقالك اسبوع. أنا فاهمة طبعا إن ممكن ماتكونش مستعد تتكلم، علشان كده هاسيبك براحتك.
- انا مش سرحان..انا تعبان بس ومرهق.

- حبيبي، أنا شوفت تعب وأرهاق منك أكتر من كده بكتير، بس الي إنت فيه ده مختلف.
بصت بريا بعيد عني، والحزن خيم على وشها وهي بتقول:
- طول عمرك كنت محافظ على مسافة بينك وبين كل الناس حتى أنا، بس كنت بتخلي بالك مني، بتجاملني وتظهرلي حبك، بتبوسني قبل ما تنزل الشغل، بتجيبلي اي حاجة صغيرة من وقت للتاني..التصرفات دي كانت كبيرة أوي بالنسبة لي. لكن الأسبوع ده إنت متغير وعارفة إنك مش هاتحكيلي، بس إنت محتاج تشوف مالك وتتعامل مع الوضع.
- آسف..الشغل بس أصعب مما توقعت.
ضحكت بريا في سخرية وقالت:
- مش عارفة إنت فاكر إنك بتضحك عليا ولا على نفسك، بس إحنا الإثنين عارفين انه مش الشغل. عموما أنا محتاجة أقضي وقت مع أمي، ضهرها بيوجعها ومابقتش اقدرة تقوم من السرير. هساعدها شوية في البيت.
في أوقات معينة كنت بشوف بريا مثالية جدا، متعاطفة، متفهمة..بتبقا عارفة أنا محتاج إيه وبتديهولي قبل ما أطلبه..ده الي مصعب عليا حياتي..أنا عارف قد إيه انا قذر وأني ما أستاهلش بريا.

***

بليل، الحلم جه تاني.
في البداية شوقت كاسي بس وعتقد إننا كنا في سيرسي، لكن الحلم مكانش مخليني اميز المكان. كنت ماشية ناحيتي وسط الضباب، عارية..
حضنتها واتلفيت في عطرها، لكن جسمها إنهار في حضني وطلع من جثتها أذرع أخطبوطية كأني في فخ شيطاني. اما فتحت عينيا كانت بريا نزلت..وسابتني أدور على نفسي بنفسي.

***

البوليس جه تاني، بس ما قعدوش كتير. التحقيق كان قصير وسريع. كان في قدام المستشفى عربية إسعاف وعمال نظافة علشان ينضفوا الفوضى الي كانت حاصلة. إستخبيت في الركن تاني وشفت الجثة متشالة على النقالة، ويا دوب قدرت أميز إن الجثة لرجل إيديه متقطعة.

محدش إتكلم عن الحادث، وكأن محدش لاحظه. غرابة الصمت ده قلقتني فعملت حاجة مش معتاد عليها..دورت على كاسي وروحت قعدت جنبها وسألتها:
- إيه الي حصل؟
- استاذ بيتشمان مات.
قالتها ومارفعتش عينيها عن الورق الي كان معاها.
- مات إزاي؟
- إنتحر.
- أنا شوفت الجثة، محدش بيقتل نفسه بقطع إيديه الإثنين خالص!
- إيه الإهتمام المفاجيء ده بالمرضى؟
- أنا على طول بحاول أساعدهم.
- محاولاتك ماكانتش جادة.
- انا ماقولتش إني عايز أنقذ العالم، بس أما مرضاي يتشالوا متقطعين يبقا لازم أهتم!
- والله؟
- إيه الي حصل للمريض؟
- قلت لك انتحار.
- وإنت مش فارق معاكي ده حصل إزاي؟
بصتلي كاسي بيعينها الشاحبة الغريبة، ووقفت ومالت عليا..كانت لابسة جيبة قصيرة. لدقايق سيبت عينينا تتلاقى وشفايفنا تقرب..كنت شامم ريحتها وحاسس بنفَسها على خدي. حطت إيدها على رجلي وحسيت جسمي بيشتعل بالرغبة، لكن بعدت عنها بسرعة فتراجعت وابتسمت وقالت:
- حاجات زي كده بتحصل..بعد فترة من وجودك هنا هاتتعود. كل الناس هنا موجودة من زمان وكلهم إتعودوا.

***

كان لازم ابعد في أجازة نهاية الأسبوع، كان لازم أطلع كاسي من دماغي هي وسيرسي والأحلام..كنت حاسس إني مسحور ولازم اهرب علشان السحر ده يتفك. الهرب تصرف جبان، بس كان بيهديني.

جيريمي- أخويا- كان دايما سعيد بمقابلتي، اما مراته بروك فتجاهلتني كعادتها. قعدت في بلكونة البيت الخلفية تتفرج على البحر والكلب متكوم تحت رجليها، الحاجة الوحيدة الي كانت بتفكرني إنها موجودة كُحتها المتكررة.
قال لي جيرمي بلهجته الريفية الجنوبية:
- ماجاش في خاطري أبدا تطل علينا فجأة كده يوم جمعة! مراتك مش هاتتقمص؟
- الصراحة انا كنت زبالة معاها مؤخرا.
بص جيريمي لمراته وإتأكد إنها مش سامعة وقال لي:
- أنا كمان خلاص مابقتش طايق.
- الدنيا ملخبطة بينكم؟
- كالعادة..إنت عارف مافيش جديد بس الواحد إتخنق.
- تحب نخرج نتمشى؟
- ونجيبلنا إزازتين بيرة مشبرين ندفن فيهم أحزاننا ياخويا.
جبنا البيرة ومشينا كتير على الرمل الأبيض، واخيرا قعد جيريمي على الأرض وسألني:
- إيه الي جابك يا إيريك؟
- ولا حاجة..الدنيا مضغوطة شوية وأخويا وحشني.
- بقولك إيه بلاش ملاوعة! أنا مش مراتك يا ولا حد من المجانين بتوعك..أنا أخوك الكبير وتقدر تفضفض براحتك ماتخافش. بس ماتقوليش إن الشوق الي جابك يعني.
أبتسمت، جيريمي اخويا الكبير وهو الي كان بيسرق لعبي ويضربني، وهو الي كان بينقذني اما حد كبير يضايقني وكان بيفهمني الدنيا الحقيقية القاسية. مايهمنيش ثقافته ولا الدنيا رمته فين، هايفضل كده كده الكبير.
- رئيستي في الشغل عاملالي مشاكل.
- وبعدين؟
- مش عارف، بتتلاعب بيا ومش فاهم إيه هدفها..بتوترني.
- مش فاهم.
- الأول كانت بتتجاهلني وتعاملني ببرود وكنت عادي مرتاح، أصلها كانت بتعامل الكل كده. بعدين بقت تعزمني على الغدا والعشا وتبصلي بصات غريبة. حاولت أحط مسافة بيننا بس كنت خايف تقفش ومستقبلي يضيع.

- ما اتكلمتش معاها ليه؟ قول لها إنك رجل متجوز وتخلي عندها خِشا وتتلم. أو أقولك علشان ما تطفشهاش، قول لها مراتي بتوريني الويل أما أتاخر ومش هاينفع أخرج معاكي وهاتلاقيها شوية شوية إتلمت.

كلام عاقل، جيريمي كان رجل عاقل، وماكونتش لاقي سبب ما يخليني أنفذ الي قاله. شاف جيرمي ترددي فقال وهو بيضحك:
- عامل فيها دَكترة وانت ضارب لخمة زي المراهقين..عايز تنام معاها قول لي وتعالى دوغري كده معايا وأنا أقولك تعمل إيه!
بصيتله وسكت من جرأته فقال:
- ماتقعدش تهزلي في دماغك زي المجاذيب. أول مرة عيني زاغت على واحدة غير مراتي كنت زيك كده وقعدت أقول لنفسي لا ياعم استغفر الله انا مش بتاع الكلام ده..بس بصراحة أنا بتاع الكلام ده عادي!
- بس أنا بحب بريا..بريا مش زي بروك مراتك.
- أخويا..آخر مرة كنا فيها في نيو أورليانز كنت عارف إنت عكيت في إيه بالليل والي عملته مش عمايل واحد بيحب مراته..ده لو في أصلا واحد بيحب مراته يعني.
- عرفت منين؟
- شوفتك مع البنت أم طاووس على ضهرها..
- بس..بس الي حصل مجرد علاقة عابرة.
- إيه الفرق؟ ماهو انا بيني وبين مراتي مافيش إلا العلاقة العابرة دي كل إسبوع. ودلوقتي خلاص لا بقا في عابرة ولا غابرة.
- علاقتي ببريا مختلفة عن الي بتقوله ده.
- أيوه الكلام الشفتشي بتاعكم ده..عندك كلمتين حلوين كبار كده توصف بيهم كل حاجة.
- ده جزء من كوني متعلم.
- بص إضحك على نفسك وبشوقك كده..بس أنا وإنت عارفين الي فيها.
- وإيه الي فيها؟
- الست الريسة حليت في عينيك، وهي بتسوق العوج وتشد وترخي..ممكن تكون لفتت نظرك علشان في مشاكل بينك وبين مراتك وممكن لأ. خش في الموضوع واعمل معاها الي عملته مع البت أم طاووس..نام معاها وأرميها في حارة..دي عادتك ولا هاتشتريها؟ الست تعجبك وتموت عليها، هوب تنول

غرضك فترميها وتشوف غيرها. غيرش بس مراتك طولت شوية عارف ليه؟ علشان ماعرفتش تنولها إلا بعد ما إتجوزتها، ولا هاتعرف تنولها لو مشيت وسابتك..الجواز كويس يا إيريك..بيخليك تفكر قبل ما تهجم على اي واحدة تعجبك كده. من ساعة ما لبست دبلة الجواز وأنا بحترم معناها.اه في ستات كتير بتعجبني بس بفتكر كلمتي قدام ربنا وعمري ما نمت مع غيرها أبدا. ده الفرق بيني وبينك..إنت خونت بريا الف مرة واراهنك تقدر تعد الي خونتها معاهم..انت حتى مش فاكرهم..عارف ليه أخوك جيف مش طايقك غيرش بس حق الأخوة؟ أراهن أنك مش فاكر لكنه عمره ما هايسامحك.

جيريمي كان غلطان..انا فاكر..
لسه شايف البنت وجمالها، وفاكر إنها كانت حبيبة جيف وعارف قد إيه كان بيحبها ومحافظ عليها.
بريا كانت مع عيلتها وقتها، وكان عيد الفصح..كنا متجمعين عند جيريمي، وجيف جاب حبيبته علشان يعرفها على العيلة. كانت مدرسة وشقرا وطموحة جدا. خدتها واتمشينا بعد الغدا من باب التعارف يعني، وجيف وجيريمي راحوا يشتروا حاجات. طول مشينا سوا كنت بقول لنفسي إني مش عايزها وإن بريا حياتي كلها..البنت كانت عاملة زي الكوكايين..ريحتها مغرية وبتسبب الإدمان وماقدرتش أقول لا...
ما أخدتش وقت معايا، وإنهارت. كانت محرومة واخويا كان جاهل..وعدنا بعض إننا مش هانجيب سيرة لحد باللي حصل. لكنها إنفصلت عن جيف بعدها بكم يوم وماخطرش في بالي أسأل عن السبب.
- أعرف منين إن جيف كان عارف؟! هو ما نطقش اصلا!
- وينطق ليه؟ إنت هاتفضل بهيم زي ما إنت مش هاتتغير. جيف حط اللوم عليها وقالها لو كنتي بتحبيني حقيقي ماكونتيش عملتي كده..انا كمان لومت عليها..هانلوم على اخونا يعني؟! عارف، في يوم هاتعك الدنيا مع الريسة وهاتقول سلام لمستقبلك بسبب الي هاتعمله.
- إيه الحكمة دي؟ الي يسمعك مايقولش إن معاك ثانوية بس.
- انا بس رجل دوغري ما أحبش اللف والدوران.

قعدت أتفرج على النجوم بتظهر بالتدريج في السما وحاولت ما أفكرش في الي قاله جيريمي. كان سكران..إتمدد على الرمل وبان كرشه الكبير من تحت التيشيرت. بص لي وابتسم فبصيت له كأني باصص لمريض على شيزلونج العلاج.
- إنت بتقول أي كلام على فكرة.
- يعني الريسة مش عاجباك؟
- هي جذابة بشكل مايتوصفش..بس مافيش أي مشاعر جنسية بيننا.
- مش يمكن علشان كده معششة في دماغك؟ بتعجبك الي تتقل عليك وتطلع عينك.
- إنت غيران شكلك.
- ممكن.
- انا مش منجذب لكاسي مطلقا. أنا بحب بريا بس.
- أمال شرفتنا ليه هنا؟
فتحت إزازة بيرة تانية، وبصراحة ماكونتش عارف أنا هنا ليه. كنت بحاول أهرب مش أكتر.
- بقولك..ارجع لمراتك يابني وكلمها بصراحة كده وحلوا مشاكلوا. وطالمها بتحبها كده مابتبطل طفاسة وعك بره؟
- انا بطلت فعلا.
- أما أشوف بعيني الأول أبقا أصدق.
- إحتياجي لإثبات نفسي جنسيا مع كذا ست من القيم المغلوطة الي علمهالنا بابا زمان. أنا عرفت مشكلتي وعرفت علاجها ومش هاخون بريا تاني.
- ما أروعك!
- أنا هارجع البيت..
قومت ونضفت هدمي وركبتي عربيتي، وطول الطريق كنت بفكر في كاسي..

***

فجأة سألتني كاسي:
- تحب تساعدني في جلسة مع مريض في التالت؟
حطيت الفايل الي كان في إيدي جنبي وقلت:
- أكيد، بس معايا شغل ورق كتير المفروض أعمله.
- ممكن تتأخر شوية وتخلصه.
كاسي مكانتش اتكلمت معايا من ساعة ما لغيت آخر لقاء بيننا. رجعت باردة وبعيدة، وعرضها عليا دلوقتي كان كل حاجة اتمناها وكل حاجة لازم أرفضها..بريا ممكن تزعل لو إتأخرت تاني، لكني مُفتقد إهتمام كاسي، مفتقد حواراتها الغريبة ومفتقد إحساس إني أكون مميز في عينيها.
- إتفقنا..معاكي ملفاتهم؟
إدتني ملف سميك فيه شغل ممتاز فعلا، إسم الحالة كان مكتوب في أعلى الملف بحبر إسود. المريض صغير السن كان عنيف جدا، ومن كم سنة فتح دماغ ابوه وأمه بفأس، وحاول يقتل أخواته الأربعة الأطفال..لكن بشكل ما البنات نجيوا بسبب خفة حركتهم ومراوغتهم ومحاولاتهم للهرب. اتضربوا بالفاس في كذا مكان في أجسامهم لكنهم في النهاية نجيوا وشهدوا قدام المحكمة. الدفاع عن المتهم زعم ان الولد كان مدمن على عقار ريتالين وده الي خلاه يتجنن. برغم أن الإدعاء مش قوي، لكن بعد سنين من التقييم النفسي والعقلي بعتوا الولد لسيرسي. الولد كان عنده 17 سنة ساعة ارتكاب الجرايم،وهو دلوقتي 19 سنة.
الملف كان سميك لأن في أكتر من 30 تقرير عن تقييم الولد النفسي من أكتر من طبيب من ساعة ما كان الولد عنده 12 سنة. الملف كان قد رواية الحرب والسلام كده وهاياخد مني ايام عقبال ما اقراه. طلعت التالت مع كاسي دخلنا أوضة جدرانها كانت بيضا ولدوقيت إصفرت من الزمن. الولد كان قاعد على سريره ومن إنطباعي الأول عنه استنتجت أنه مصاب باكتئاب جسيم مش سكيزوفرينيا وبارانويا زي ما هو مكتوب في التقرير.
كان متكوم في سريره بيبكي ويمسح وشه في الملاية. قالت له كاسي:
- شكلك مش مضبوط النهارد يا روي..اسمي الدكتورة آلن، وده دكتور بلاك. إحنا هنا علشان نساعدك على قد ما نقدر. ممكن تحكي لي مالك؟
- إنت عارفة.

- يعني إيه أنا عارفة؟
- أكيد بتعرفي تقري يعني، مش معاكي ملفي؟
- الملف فيه آراء ناس تانية عنك. أنا عايزة بس أعرف ليه بتعيط؟
- ما تدوني اي دوا ولا حاجة وتمشوا من هنا.
- بتعيط ليه؟
- أنا مجنون.
- مش كل المجانين بيعطوا كده.
- مش انتي الدكتورة؟ إعرفي بقا بعيط ليه.
مسح وشه في الملاية وملامحه إتغيرت في ثانية من الحزن للغضب.
- يمكن أنا مش دكتورة شاطرة، فعايزاك تحكيلي ليه بتعيط.
- انا بكره المكان هنا.
- هو مكان مش لطيف أوي بس هانعمل إيه؟
- أنا بكرهكم.
- إنت ما تعرفناش، ليه بتكرهنا؟
- لأني مش فارق معاكم.
- أنا فارق معايا، وعلشان ده بسألك بتعيط ليه. إنت مريت بمواقف صعبة كتير، قريت ده في ملفك، بس المكان هنا أحسن من السجن..فقول بتعيط ليه؟
- علشان كل حاجة..انا إنسان وحش، مش كده؟ مش هاشوف عيلتي تاني أبدا..أنا هنا لوحدي وقتلت عيلتي..قتلتهم وكل الناس فاكرة إني مجنون، بس أنا مش مجنون..وما قصدتش اقتلهم. يمكن كنت بكره أبويا وأمي أو بكره تحكماتهم بس ما قصدتش اموتهم..وكنت بحب اخواتي..
- طيب إيه الي حصل خلاك تعمل كده؟
- مش عايز أتلكم تاني في الموضوع ده..تعبت من الكلام مع كل واحد يشوفني..تعبت من التفكير.. شوفولي حاجة تريحني من العذاب الي انا فيه ده.
- في اعتقادك انت هنا ليه؟
- قلت لك علشان قتلت عيلتي!
- إنت مدرك إنت فين؟
- في مستشفى مجانين.
- وليه ما دخلتش السجن؟
- علشان فاكرينني مجنون..علشان مش هايستوعبوا حاجة مش فاهمينها..يمكن علشان المحامي بتاعي مكانش عايزهم يعدموني.

- إنت عارف تاريخ النهاردة يا روي؟
- اسئلة تاني...كل ما حد يدخل لي يسألني نفس الأسئلة..معرفش النهاردة إيه..يمكن إحنا سنة 1862 وانا نابوليون، يمكن بكرة اروح قبرص..يمكن انت حبيبتي الوحيدة..يمكن قلمك أصلا عبارة عن مسخ ويمكن الساعة بوصلة..بعرف أطير وبكرهك وبكره إني بكرهكم وماعنديش سبب أهتم بالمكان ولا العلاج ولا اي نيلة بتعملوها!!
بدأ كلام روي يبقا بدون معنى، وبدأت غضبه يزيد، ولقيت نفسي برجع بضهري كم خطوة. بس كاسي ما اتهزتش. قربت منه وقالت له في هدوء:
- معلش..خلاص مش هانسأل أسئلة تزعجك..تحب إنت تتكلم عن إيه؟
راح الغضب ورجع يعيط ورجع بضهره في سريره واتكوم في الركن. بدأت أدون ملاحظاتي في دفتري في توتر وحاولت أركز..كنت حاسس إني مش جاهز لجلسة زي دي وكنت مرتاح كون كاسي مسيطرة على الأمور.
- تعالى ندردش..إنت خايف؟
- أنا تعبان..وأنت ماتقدريش تساعديني..خلاص فقدت روحي..
- فقدت روحك إزاي؟
- إنت عبيطة؟ بقول لك قتلت عيلتي!
- إنت شايف إن كده خلاص. مافيش ندم او توبة؟
- انا بعت روحي للشيطان!
- بعتها مقابل إيه؟
- ولا حاجة...لمجرد إني أشوفه..علشان أحس إني قوي ومختلف..
- تفتكر ممكن نرجع روحك؟ ممكن أساعدك.
- فات الأوان..هايجيلي قريب..هو خلاص أخد كل الي بحبهم.
- يعني الشيطان هو الي قتل عيلتك؟
- لا..أنا الي قتلتهم.
- الشيطان هو الي قالك تقتلهم؟
- لا..أنا حضرت واحد من جيشه.
- وهو الي قالك تقتلهم؟
- لا.
- طيب ليه قتلتهم؟
- ....
- روي؟

عينين روي ثبتت على الشباك، وضم ركبه لصدره أكتر وقال:
- قلت لك مش عايز اتكلم.
- انا بس عايزة اساعدك يا روي. ده آخر مكان هاتوصل له فخليني اساعدك..كلمني..
دور وشه وجسمه ناحية الحيطة وسكت. قامت كاسي وقعدت جنبه على السرير وحطت إيدها على كتفه، فبعد نفسه عنها.
- خلاص..هارجعلك بكره.
طبطبت كاسي على خده وهي بتقوم وتجمع ورقها. تصرفها ما ريحنيش. بص لها الولد وكأنه كان شايف الشيطان نفسه قدامه. وكش في نفسه تاني..

***

بعد ما خرجنا من عنده سألتني:
- إيه رأيك؟
- غريب تأثير الفصام على مخ البني آدم وإزاي بتخليه يركز على أمور دينية زي موضوع الشيطان ده. شوفت كتير من المصابين بالفصام والبارانويا بقوا مهووسين بالدين وبيعتقدوا إن الشيطان هاييجي يحصد أرواحهم هم بالذات.
- الخير والشر..الرب والشيطان جزء من لاوعينا الإنتقائي والإعتقاد فيهم مش مرتبط بالفصام أو البارانويا. كلنا بنخاف من الحاجات الي في الظلال والي مش قادرين نشوفها..كمان الإعتقاد ده موجود في أساطير كل الحضارات. الشر موجود في مكان ما بشكل ما وبيدوّر علينا..كل الإختلاف إن المرضى العقليين ما بيقدروش يخبوا مخاوفهم ويجملوها زينا.
- مش شاكة في تشخيصه بالفصام؟
- لا خالص..حتى لو شكيت، تفتكر شكي هايفرق وسط تلاتين تقرير من مختلف الأطباء في الولاية؟
- أنا بش شايفه واعي ومدرك على عكس تشخصيه.
- لا عادي..في مرضى بيجيلهم لحظات إدراك من وقت للتاني..بعدين هو بياخد أدوية فوارد تكون مخلياه مركز اكتر.
بس عندك حق..عموما هاسيبك ترجع تخلص شغلك علشان ما تتأخرش على بيتك. حابة اعزمك إنت ومراتك على العشا في بيتي الجمعة الجاية. موافق؟
- طبعا!

***

فضلت أفكر في دعوتها طول اليوم، كان تصرف غريب جدا على كاسي. زملاء المهنة العاديين ممكن يتعزموا عند بعض أو يخرجوا كعائلات سوا، بس كاسي مكانتش جزء من الثقافة دي، كان لها ثقافة خاصة بها. كل الي يعرفوها من زمان كانوا بيقولوا انها منعزلة وعمرها حتى ما أكلت مع زملائها في كافيتريا المستشفى. عزوماتها ليا كانت غريبة، بحسها طقس كده وكنت مستمتع بالطقس ده..بس ضم بريا لطقوس كاسي كان مقلق.
في كذا يوم من الأسبوع ده كنا بنتغدى سوا في كافتريا المستشفى..كانت ست فريدة، بتتكلم بكل حرية وطلاقة في الطب والتاريخ والأساطير..ساعات إيدها كانت بتلمس إيدي بالصدفة، وكنت بحس بإحساس غريب بيسري في دراعي..وإيدها كانت ناعمة وباردة.
ايام تانية كنا بنتغدا في المكتب، كنت بلاحظ إنحناءات جسمها وإستدارة رجليها الي تليق بشخص رياضي. كانت ساعات بتاخد بالها من نظراتي لرجليها وتقول لي وهي بتبتسم في خبث:
- في حاجة على رجلي؟
- ابدا..كنت بتسائل بس، إنت بتجري؟ جسمك رياضي خاصة رجليكي.
- جسمي معقول بالنسبة لسني فعلا..بحب المشي والتسلق، بيريحوني نفسيا.
- بتتسلقي؟!
- أيوه ..تسلقت رانير الصيف الي فات.
- فعلا؟ أنا برضو كنت متعود على التسلق والمشي، بس بريا مكانتش بتحبهم أوي.
- خسارة إن شغفك برياضات لطيفة كده يروح هدر.
إتلاقت عينينا، وعرفت إيه الي بيننا..نظرتها ليا ونظرتي ليها أكدتلنا كتير.
قمت وتشاغلت بالملفات، كنت بحاول ما أخليهاش تكون إنطباع عني من نظراتي لها.

—

***

في الجلسة مع كاتي، قال السيد السمين انه هايروح مجموعة علاجية من البيت الإسبوع الجاي. سألته كاتي:
- من قال كده؟
- دكتورة آلن.
- ما سمعتش عن حاجة زي كده. قالت لك حاجة تاني؟
- قالت اني بتحسن وإني ذكي.
طلعت ملف السيد السمين وبصيت على الملاحظات، لقيت انه لسه يعتبر مش مناسب لإطلاقه في بيئة منفتحة أكتر ومافيش أي ذكر لكونه قابل دكتورة آلن.
سألته:
- تفتكر ليه قالت لك كده؟
- مش عارف. اعتقد إننا هانتجوز أما أخرج من هنا.
السيد نيكّا بصق عيله وقال:
- إنسان متخلف!
قالت كاتي:
- مايصحش خالص كده!
- يعني فاكر دكتورة بالحلاوة دي ممكن تتجوز مريض مفشكل ومجنون؟ متخلف!
- سيد نيكّا، هانضطر نمشيك من الجلسة لو فضلت تشتم في الناس كده.
- أنا شوفت الشيطان إمبارح وقال لي إنه هايجيلي المرة الجاية.
قلت للسيد نيكّا:
- فاكر كلامنا عن الشيطان؟
- إنت قلت إن الشيطان مايهموش فلوسي ولا عربيتي ولا هاتجوز مين.
- لا ماقولتش كده أنا..فاكر قولنا إيه الخميس الي فات؟
- قلنا إن الشيطان مش حقيقي ، وإنه جزء من جناني.
- واما تشوفه أو تسمعه بيكلمك لازم تقفل عينيك وتقول لنفسك إنه مش حقيقي.
- أما هو مش حقيقي ليه الدوا ما بيمشيهوش؟
- مرضك مقاوم للأدوية وإحنا بنحاول نعالجك بطرق تانية. ممكن نطلب لك حد متخصص يساعدك أكتر في موضوع إنك تتدرب ماتشوفهوش وماتسمعهوش.
- أنا جربت ومانفعش! وبعد ما يخلص عليا هايجيلها..
- هاييجي لمين؟

- الشيطان هاييجي لدكتور آلن.
قال السيد جيليز وهو بيدخل لسانه وبيطلعه:
- أخدت فلوسي.
سألته:
- فلوس إيه؟
- فلوس الماس.
بصت كاتي للورق معاها وقالت:
- طيب ممكن نبطل كلام عن دكتورة آلن ونتكلم عن يومنا شوية؟
قال السيد السمين:
- انا أخدت حمام النهاردة.
صرخ السيد نيكّا:
- ده طافح ست صواني أكل إمبارح، ناقص يلم البراز من الحمام ياكله.
قلت له:
- اعتقد إنك محتاج تركز على مشاكلك يا سيد نيكّا.
- ما تغور بقا يا نجس! انا شوفتك وشوفتها إمبارح وشوفت التانية دي..التانية الي بتطلع خنافس من بُقها وهاتجيلكم إنتم الإثنين وهو عارف.
وسط كل هذيانه سمعت جزء من حلمي..كان بيتكلم عن الست الي في الحلم! جسمي كله قشعر وابتسم السيد نيكّا وكشف أسنانة المسودة. فجأة وقف وبص عليا وقال:
- إنت فاكر إننا كلنا مجانين وإنت العاقل، بس أنا أقدر أشوف الي إنت ماتقدرش تشوفه. أنا شايفك إنت وهي نايمين سوا في الضلمة وعارف زناكم ده هايعمل إيه..جين قالت لي..أنا عارف حقيقة المكان ده، وعارف إنه مش مستشفى.
سألته:
- مين جين؟
- كانت شغالة في المبنى القديم.....بس الشيطان موتها.
قالت كاتي بلهجة صارمة:
- اقعد يا سيد نيكّا وإلا هاخليهم يكتفوك!
بس أنا مش عايزة يسكت، عايزة يكمل..وفعلا كمل:
- أنا وأنت هانرقص مع النار، أنا وإنت بننتمي للمكان ده، هو نارنا..المكان ده هايخلص عيلنا..

ورمى قلم على السيد السمين وطلع يجري.
كملت كاتي الجلسة بعد ما بصت لي بصة سريعة، وماقدرتش اتكلم أو أعلق على أي حاجة تانية بعد كده. كنت عايز أخلص واكتب تقاريري أسرع وقت.

***

كنت قاعد في المكتب بخلص آخر تقرير أما كاسي دخلت. مش قادر افسر ليه كلام نيكّا ضايقني ولا قدرت أبعد الكلام عن بالي. فضلت ذكريات من حلمي تروح وتيجي قدامي. رمت كاسي كتاب على المكتب ففوقت من شرودي. قالت لي:
- إيه شوفت عفريت؟
- السيد نيكّا بقا أعنف، بصق في عيني.
- يبقا حبك!
- يابختي والله.
- ياللا نروح نشوف روي تاني!

***

روي كان زي ما هو بس مكانش بيعيط. سأل كاسي:
- إنتي ساحبة ضلك وراكي ليه؟
- مش فاهمة.
- الرجل الي معاكي ده.
- ده دكتور بلاك، بيساعدني اساعدك.
- مافيش حد يقدر يساعدني.
- طيب إيه الي ممكن يحسن شعورك تجاه المكان هنا؟
- إني اولع فيه وأهرب.
- بتحب النار؟
- لازم اتعود عليها.
- ليه؟
- أنا ملعون..نسيتي؟ بتقعدي تكتبي كتير بس مابتسمعينيش كويس.
- انا بسمعك..ليه لازم تتعود على النار؟

- أنا قتلت عيلتي واستحميت بدمهم! مهما اتوب وادعي مافيش حاجة هاتطلعني من جهنم. الحجاب بين عالمنا وعالمهم هايدوب في الخريف، والشياطين هاتيجي..مستنيين ورا الإزاز ..مستنيين ننادي عليهم..واما ننادي عليهم بييجوا فورا..هو جه علشان ياخد جسمي و..و عملنا الي ما اقدرش اقوله. دلوقتي الشتا داخل وهايرجع ياخد حقه مني.
- حقه ده الي هو إنت؟
- غوري من هنا! خدي كلبك معاكي وإخرجي!
قام ورمى المخدة عليا فقالت له كاسي:
- انا هامشي حاضر وهارجعلك مرة تانية من غير الكلب.

***

اخدتني كاسي للمكتب علشان اكمل شغلي. مسكتها قبل ماتمشي وقلت لها:
- انا مش كلب ومحدش هايعملني بالطريقة دي تاني خاصة قدام المرضى. هابقا اخلص التقارير بكره.
قالت كاسي بصوت واطي:
- براحتك.
اتحولت، عينيها غيمت وحسيت انها بقت زي النسمة، وخمنت ايه الي هايحصل.
وقفت على اطراف صوابعها وباستني. كانت قبلة سريعة لدرجة ان يادوب شفايفها لمستني..لكن القبلة دي أشعلتني..

***

أما نزلت ساحة الإنتظار لقيت جون وآندي واقفين جنب العربية وبيضحكوا. سألتهم:
- بتضحكوا على إيه؟
- واحد من الأخصائيين النفسيين كان بيحاول يعمل انعاش قلبي رئوي لمريض ميت. عارفين إنهم درسوا في كلية الطب بس هم برضو مش أطباء.
- يا ساتر!

- أول ما الممرضين أعلنوا إنه مات، دخل ده بقا وإديله حتى من غير ما يشوف علاماته الحيوية. فضل مفرهد نفسه وهو أصلا ما كلفش خاطرة يتأكد من دليل إنه ماماتش وشبع موت.
قال جون:
- هايوحشني.
- هو إيه؟
- الشغل مع دكتور دونالدز... فاضل شهر يا إيريك ونبدل أماكننا، نسيت ولا إيه؟
ركبت العربية في الكنبة الي ورا كالعادة، وحطيت ورق شغل آندي بعيد. أنا فعلا نسيت إن فاضل لي شهر ومش هاشوف عنبر الحالات المزمنة ولا دكتورة آلن تاني. بصت آندي في مراية العربية وشافتني، قالت:
- شكلك مش مبسوط، في حاجة حصلت؟
- لا أبدا..ساعات بكره الشغل، والتغيير مطلوب برضو.
- انا مبسوطة أن فاضل 7 شهور ونخلص خالص من التدريب وتنزل عروض الشغل علينا بقا زي المطر.
إتكملت آندي عن طموحها في الشغل في مستشفى صحة نفسية نسائية في لويزيانا، وجون كان بيفضل إنه يشتغل في التدريس. وقلت أنا:
- والدي كان شريك في عيادة وزمايله هايدخلوني مكانه.
تسائلت آندي:
- عيادة خاصة؟ تقعد تسمع نفس المشاكل المملة كل يوم بتاعت ناس متدلعة والطبيب النفسي جزء من شياكتها؟ أما إتخصصت نفسية كنت بحلم أعمل فرق مع الناس المحتاجة. في المستشفى الي عايزة أشتغل فيها هساعد ستات مُغتصبة ومتعرضة لإهانات وعنف أسري..كده فعلا أقدر أساعد وأغير حيواتهم.
- إنت شخص مثالي. أنا إتخصصت نفسي علشان والدي فطبيعي آخد مكانه في العيادة. أنا مش عايز اغير العالم زي ما بتحلمي يا آندي..ده أنا لسه مش عارف أبدا منين.
- إبدأ من هنا..الناس في المستشفيات محتاجانا..كل مريض هنا محتاجنا.

ضحكت..مش قادر اتخيل إزاي ممكن اساعد أي مريض في قسم الحالات المزمنة، كل الي هاعمله إنه أدير طريقة لرعايتهم وأساعد الولاية إنها تحفظهم

في بيئة آمنة وحدودة..هحاول اخليهم يتحسنوا علشان أنقلهم لأي مكان تاني ويبقوا مشكلة حد تاني. افتكرت السيد السمين، إزاي ممكن أساعد واحد حاول قتل أمه علشان حتة توست؟ إزاي اقدر أغير حياته؟ المختصين النفسيين بيدوهم أدوية مهدئة، العاملين والممرضين بيحافظوا على نظافتهم واكلهم، واحنا بنراقب من بعيد..كل ده جهد مشكور بس ما يعتبرش جهد لتغيير العالم او تغيير حياة المرضى. تقدر تقلب كوباية شاي بسهولة، بس سيرسي حمام سباحة مستحيل تقدر تقلبه بمعلقة.

بعد دقايق قالت آندي:

- بص يا إيريك، إحنا مش صحاب وفي بيننا ود مفقود وإنت عارف، بس تحت الكلام الفاضي ده كله هاتلاقي إعتقاد عندي إنك رجل كويس. مش وحش تمشي على خطا والدك..تقدر تشتغل كويس وتساعد طالما بتحترم والدك للدرجة دي.

- شكرا..إنت كمان ست كويسة..ممكن تكوني بترغي كتير، بس بعد شغل خمس شهور مع كاسي مابقاش عندي مانع أسمع صوت تاني.

قال جون:

- إيه يا جماعة إحنا هانموت ولا إيه؟ لسه فاضل سبع شهور!

ضحكنا، بس أنا كنت فعلا أقصد إني اقرب منهم، كنت محتاجهم..

- أنا محتاج أتكلم معاكم..في حاجات غريبة بتحصل في سيرسي وكنت عايز عينين معايا تشوف الي بشوفه، يمكن أكون غلطان. في كذا مريض مات، بس مش موتات عادية، في أجزاء من اجسامهم مبتورة. محدش ملاحظ ده ولا مهتم كأنه شيء طبيعي إن الواحد يموت متقطع. البوليس بييجي يسأل سؤالين ومانشوفهوش تاني. كاسي بتعاملني كأني مجنون أما بسأل عن المرضى دول، وبتقعد توقل لي عادي وطبيعي في قسم الحالات المزمنة إن ده يحصل.

كشرت آندي وقالت:

- قالت لك كده؟ عادي؟

سأل جون:

- كم واحد مات؟

- خمسة لحد دلوقتي.

سألت آندي:

- خمسة في خمس شهور؟!

قال جون:
- معدل مش طبيعي أبدا.
- إريك، سيبني النهاردة هاسأل كده وأقرا لسجلات وأشوف لو باقي الأقسام عندها نفس المعدلات دي. الصراحة أشك..

***

بريا مكانتش في البيت أما رجعت بليل. بدأت اطبخ، مابحبش أطبخ ولا اعمل شغل البيت. بس بريا كانت بطلة، بتشتغل طول النهار وبتقبض تلات أضعافي وبيفضل عندها صحة للطبخ وشغل البيت. بريا كانت مجهزالي كل حاجة قبل ما تمشي وريحتها مالية المكان. ابتسمت وانا بطلع الأكل من التلاجة متقطع ومترتب يادوب على الطبخ. بريا كانت بتعمل كل حاجة بشكل مثالي.
كنت بحط الأكل على السفرة أما بريا دخلت. حضنتني وباستني وابتسمت وهي بتبص على الأكل:
- انت عملتلنا العشا!
- بنحاول أهو.
- انت جميل.
- بس جمالي له اعراض جانبية كده...
- يعني إيه؟
- لازم تيجي معايا عند رئيستي في الشغل. عازمانا على العشا الجمعة في بيتها.
- إيه ده، هقابل أمنا الغولة! طبعا موافقة، بتقول إيه؟ لازم آجي أتفرج! دي أسطورة يابني..
- ممتاز..هاتزهقك وتقتلك ملل علشان تبقي عارفة يعني، ست غريبة وبتتكلم كلام مالوش لازمة كتير.
- أنا بحب الحاجات الي مالهاش لازمة علشان كده حبيتك!
-بقولك إيه، لازم تتعدلي معايا النهاردة ده أنا طابخلك!
- وانت مش بتتعدل معايا ليه وانا بعملك كل حاجة طول الوقت؟ بس من هنا ورايح لازم تتعدل وتحبني مهما أعمل..عندي لك خبر حلو..
مش عارف ليه جسمي قشعر، حسيت هي هاتقول إيه قبل ما تتكلم..كان قلبي حاسس..قلبي المرعوب كان حاسس.

- طب ثواني أقعد يا بريا.
- إنت عارف هاقول إيه؟
- تقريبا.
- عارفة إنك دايما معتقد إنك مش مستعد، بس فعلا أنا محتاجة ده..ما تعمدتش طبعا أعمل حاجة غصب عنك، هي جت كده..إنت السنة الجاية هاتشتغل في الوقت الي هابقا مضطرة فيه أقعد في البيت.
- إنت في الشهر الكم؟
- 8 أسابيع..حجزت موجات صوتية ومحتاجاك تكون معايا.
- آه حاضر..
ماقدرتش أبتسم، كنت عارف إنها بتدور في وشي على الفرحة، عارف إنها كانت محتاجاني أشيلها والف بيها ونصرخ سوا من السعادة..بس انا لا كنت عارف أحس ولا أفكر في حاجة.
- إيريك..قول حاجة..قول إنك مبسوط، قول إنك عاوز الطفل ده لأنه كل أحلامي.
- انا مبسوط..انا بس إتفاجئت غير إني مش كويس أول في التعامل مع الأطفال.
- كنا دايما بنقول إنه هايبقا عندنا أولاد، وإنت قلت إنك عايز طفلين على الأقل. كل الموضوع إن البيبي هاييجي بدري شوية عن مخططاتك.
- بدري سنين..
- الطفل ده هايكون مني ومنك، هايحبك وحبه هايعلمك تبقا أب كويس.
- ماعنديش مثل أعلى للأبوة أقلده.
- هاعلمك!
ركعت قدامي وحطت راسها على ركبتي، مسحت على شعرها وأخيرا ابتسمت وقلت لها:
- أنا بحبك يا بريا، وبحب البيبي ده وبحب أي حاجة تيجي منك.
وإحنا بناكل فضلت تتكلم عن الأسماء والسبوع وشرا بيت كبير في فولي بعد ما أشتغل في عيادة والدي، وعن أوضة الأطفال وشكلها ولونها. ابتسمت وبلعت كل مخاوفي بالعافية..ماكونتش عايزها تعرف ان الاطفال بالنسبة لي مجرد قرود معنديش أي فكرة عن متطلباتهم..مش هايبقا في خروجات ولا سفر..مش هايبقا في جنون ولا طموح جامح.. كل ده الأطفال هايدمروه..

بيحبسوك في عالم من الحفاضات المتسخة والأمهات المنهكات الي مش قادرين على حضن حتى.
حياتي خلاص..إنتهت..
بريا ملعبتش رياضة اليوم ده، فضلت قاعدة تاكل فشار..الحياة الي جوه جسمها بدأت تغلفها بهالة غريبة مشعة، هالة بتحتويها وبتبلعني.

***

الفصل الرابع

البيت بدأ يتملي حواليا حاجات أطفال..لبس، ببرونات، لعب..بريا اشتركت في فصل يوجا للحوامل. أوضتنا مافيهاش متر فاضي من كتب التربية والحمل والولادة..إلخ. بريا كانت أم مثالية من ساعة ما الطفل كان خلية في بطنها، وكانت بتهتم بقطعة اللحم دي أكتر ما أغلب الأمهات بتهتم بأولادها الحقيقيين. بس أنا تعبت..

تعبت من قراءة كتب الأطفال عن أطفال لسه ما إتولدوش، وتعبت من تدليك رجليها كل ليلة، وتعبت من قيئها ودوختها المستمرين.

الأكل في البيت إتحول من أكل صحي لأي حاجة تسد الجوع والسلام، كل الي كان مسموحلي به هو الجري..الجري بمعناه الرياضي والمجازي.

كنت بجري لحد ما رجليا توجعني كل يوم، وكنت بهرب في شغلي وبقضي وقت أطول فيه..بقيت براجع شغلي وشغل الناس وبدور على أي عيوب تحتاج تصحيح. بقيت بزور المرضى بس علشان أتكلم.. كنت بحضر كل جلسة ومحاضرة ممكنة، خلقت لنفسي شغل من تحت الأرض.

كاسي لاحظت، وكانت جنبي دايما وبتحاول تلاقيلي شغل أنشغل فيه.

ليلة ورا ليلة بنقضيها سوا، بنشتغل ونتكلم عن الكتب والأساطير.

بقيت مبهور بيها، كانت على عكس بريا في كل حاجة..باردة وقوية وقاسية..

في ليلة فضلت في الشغل لحد منتصف الليل، كنا بنشرب قهوة في المكتب وندردش..عينيها كانت مضيئة في النور الخافت.

- عندي لك حكاية تانية.

- بتجيبي كل الحكايات دي منين؟

- بقراهم.

- هو لسه في ناس بتقرا؟ أمال ربنا خلق الأفلام ليه.

- ظريف..انا لقيت ملف في المبنى القديم مليان قصص.

- كنتي بتعملي إيه في مبنى الملفات القديمة؟

- - إنت عارف إني بعمل أكتر من مجرد إني اخلي بالي من المرضى..المكان ده حياة لوحدها. المهم لقيت الملف الضخم ده ورا كوم ورق من القرن الي فات. الي كتبته ممرضة كانت شغالة هنا زمان.

طلعتلي ملف ضخم مهتريء، قلبت فيه ولقيت فيه كتابات ورسومات لوجوه باهته. رسومات لستات ورجالة شغالين في الحقول، ناس محبوسة في زنازين، ناس مضروبة ومتعذبة..
قريت كم صفحة عشوائي كده من النص، الي كاتبه إسمها جين!
كانت بتحكي في الكم صفحة دول عن مريضة ممرض اغتصبها. قلبت في الورق تاني ولقيت جين كاتبة عن زيارات شهرية من طبيب، كان بيمشي وسط الزنازين والمرضى ويكتب ملاحظاته من بعيد. جين كانت بتستنى زيارات الدكتور ده وكانت عايشة على سماع صوته وعلى اي نظرة يبصهالها.
كتبت كمان عن ارباح المستشفى من الزراعة، وكانت بتكتب بطريقة بتنحي فيها أي مشاعر عن المرضى وكأنهم مجرد أشياء مش بني آدمين. كانت شايفاهم حيوانات قذرة..مكانش بيهمها إلا الطبيب وبس.
قلت لكاسي وانا بديها الملف:
- إنت لقيتي بلاوي..مالاقيش عندك مجموعة أطفال محروقة في البدروم ولا حاجة؟
- أنا مابلاقيش بلاوي على حسب تعبيرك، بس بلاقي إن الناس الي بتعملها محل إهتمامي.
- أكيد مش إنت الوحيدة الي بتفكر في كده وإلا ما كانتش أفلام القتلة المتسلسلين هاتبيع بالشكل ده.
- إنت مش شايف قيمة الملف ده؟ المذكرات دي تاريخ، جزء من غموض المكان ده. في حاجات فظيعة حصلت هنا، كانوا بيعتبروا الزنوج حيوانات!
- ولسه في حاجات فظيعة بتحصل هنا...السيد نيكّا رمى فضلات بشرية على الممرضات الصبح.
شاورت كاسي على صف كتب التاريخ والأساطير الضخم وفي مكتبتها وقالت:
- لازم تقرا الكتب دي في يوم من الأيام.
كنت عايز أسألها ليه لازم اقراهم؟ انا مش مهتم أصلا بس ماكنتش هاقدر أقول أي حاجة تبعدها عني..جوعي لها كان شاللني. قالت لي:
- عارفة إن موضوع الوفيات الكتير شاغلك، كنت بس عايزاك تعرف إن الحوادث دي عادية..المكان ده طول عمره كده.
- مسكون يعني وفيه عفريت بيموت الناس ولا إيه؟

- أنا ماقولتش كده.
- أمال إيه؟
- ماذا لو إن في عالم ورا العالم المرئي بتاعنا؟ ومن وقت للتاني بيحصل ثقب صغير في الحجاب الي بيننا وبينه، إيه شكل المكان الي بيحصل فيه الثقب ده؟ إي نوع من الناس ممكن تعيش فيه؟ والناس هاتقول إيه عن الي بيشوفوا عبر الحجاب ده من الثقب؟
كانت متحمسه وبتنهج، مكانش هاممني حماسها ده، كان هاممني شكل جسمها وجمال ملامحها و..
قعدت فجأة على مكتبها وفتحت المفات وبدأ توريني صور العبيد الي كانوا هنا زمان وصور للقلعة. وقرينا قصص أنتحار وإعدام..منهم قصة كانت بالأسبانية وكاسي ترجمتهالي. كانت عن بنت إتعذبت بسبب اتهامها بالخيانة..البنت كانت عندها 15 سنة بس.
أرض المستشفى كانت بتتروي بدم الناس دي، ومحدش عارف إن تاريخ سيرسي قديم للدرجادي. كل ده كانت كاسي عارفاه ومحتفظة به لنفسها وعايشة جواه.

***

اما رجعت البيت، بريا كانت بتعيط ومش عايزاني أتأخر في الشغل تاني.
اتهمتني إني مش عايز الطفل وإني بهرب منها. دفعت إتهاماتها بكدب محكم، ابتسمتلها وبوستها وانا بخبي الحقيقة، ماكونتش قادر أمنع الي هايحصل من إنه يحصل.

***

كنت بشتغل، كاسي لمست كتفي بصوابعها الباردة الناعمة وقالت لي:
- طالما كده كده هاتقعد لبعد 8 علشان الشغل الي وراك، إيه رأيك تتمشى معايا شوية؟
الليل كان جه والمرضى في اوضهم مقفول عليهم..
مشينا في الهدوء ده بره، مكانش فيه إلا بعض أفراد الحراس أو الطاقم الطبي ماشيين من مبنى لمبنى، بس محدش ميزنا في الضلمة واهتم يبصلنا أصلا.
مشينا لمبنى الحالات الخطرة القديم المقفول. ابتسمت لي كاسي وطلعت من جيبها مفتاح.
مكانش في داعي أسأل أي أسئلة..كنت مستعد أمشي في أي إتجاه يبعدني عن المستقبل الي إترسم لي غصب عني.
ما سألتش نفسي هي ليه مدخلاني القسم المهجور ده..بس كان عندي آمال، مش مهم هي إيه. مشينا لحد الباب الخلفي وخضنا في كراكيب ملهاش حصر. طلعنا سلم قصير ودخلنا صالة أرضيتها خشب مترب. ورق الحائط كان مشقق وواقع، لكن كان بيدل على على فخامة قديمة.
توقعت كاسي تطلعني لقسم الحالات الخطرة، لكنها دخلتي من باب ونزلنا منه لظلام حالك. كشاف كاسي كان بيحاول يبدد الضلمة قدر الإمكان. سألتها في خوف:
- إحنا فين؟
- الجو هنا عموما مش برد، بس ساعات المطر كان بيبقا غزير، وكل المباني هنا كانت متصلة ببعضها بأنفاق تحت الأرض علشان يقدر العاملين ينتقلوا من مبنى لمبنى من غير ما يتعرضوا للمطر. اغلب الانفاق ده إنهارت في الخمسينات. لكن لسه في كم نفق موجودين..وده نفقي.
وقفت أبص للحيطان، كان عليها علامات وكتابات بقلم أحمر، كنت خايف اقراها..كنت خايف ابعد عن كاسي، فمشيت ورا ضوء كشافها بترعش.
في نهاية الممر، كان في منظر عجيب جدا..
باب ضخم مقفول ومرسوم عليه مثلث باللون الأحمر. جوه المثلث كان في نجمة خماسية..

فتحت كاسي الباب، وإتفتح علينا مشهد كأنه من فيلم وثائقي رخيص عن السحر والشعوذة في العصر الحديث. كان في شموع في أركان الأوضة الواسعة، وكان في مذبح ورموز على الأرض مافهمتش منها حاجة. لكن المنظر ضحكني، فإبتسمت كاسي وقالت:
- كنت فاكرة إن الحاجات دي هاتعجبك.
- حد من المرضى زمان عمل الحاجات دي؟
- لا.
- واحد من الفريق الطبي دماغه لسعت وعملها وهاتحكيلي قصته؟
- أيوه..عايز تسمع القصة كلها؟
- بحب أسمع قصصك دايما.
قعدت على كرسي قديم في ركن، وبدأت كاسي تحكي:
- ده قلب سيرسي، ده معبد لكل الي بيعرفها..المكان ده هو الي الواقع بيموت فيه وبتتولد فيه الآلهة القديمة..ده المكان الي بدأ فيه الثقب في حجاب الواقع، والي بييجوا هنا ما بيموتوش أبدا.
- إنت مجنونة يا كاسي.
بصيت حواليا تاني، الشموع كانت متولعة قريب، وشوفت الكتابة الي على المذبح في ضوئها، وضحكت تاني. انا كنت أحمق وكاسي هي الوحيدة الي تقدر تعمل مشهد زي ده وتقنعني إنه بجد.
- إنتي الي عملتي ده؟ كاسي إنت إتجننتي مافيش عندي تفسير تاني.
- إضحك إضحك..أنا برضو ضحكت زمان...زمان ايام ما كان عندي عيلة، بس كلهم راحوا ..المكان ده هو عيلتي الوحيدة دلوقتي.
- كاسي، بجد إنت محتاجة مساعدة طبية..لازم أبلغ أي حد.
- مش هايسيبوك تعمل ده..فاهم؟ المكان ده هو السحر نفسه.
- سحر؟ لغاية دلوقتي يا كاسي أنا بحترمك برغم الكلام الفاضي الي إنت مؤمنة به..ممكن أتجاهل كل غرابتك لأنك دكتورة ممتازة، بتقدري توصلي لمكان جوه المرضى محدش بيقدر يقرب له..كنت جادة وقوية في شغلك..إنت شخصية أسطورية هنا في سيرسي والكل بيحلف بك وبيقدرك رغم كل شيء. خليني أكون صريح معاكي، انا قضيت وقت طويل بفكر فيكي كأنثى، وجيت هنا أملا مني إن في..إنت فاهمة كنت عايز إيه..بس دلوقتي كل حاجة اختلفت خالص..انت مريضة.

كنت حاسس بالغضب بيزيد جوايا، مش بس كنت غضبان منها، كنت غضبان من نفسي إني جيت وراها زي الأهبل كده. غضبان من إن شهوتي جرتني لقبو مهجور مليان رموز رسمتها ست مجنونة. كنت غضبان علشان كل حاجة باظت في حياتي..من أول التضحيات الي عملتها علشان زوجة ماشية بدماغها وبتاخد قرارات من نفسها، لحد مستقبلي الي ضاع بكل المقاييس.
بس اغلب الغضب كان من كاسي، من إيمانها إنها قوى خارقة من قوى سيرسي. حبيتها واحترمتها بس طلعت زيها زي أي مجنون هنا، زيها زي قارئة كف في ميدان في نيو اورليانز.
قالت لي:
- انت ما بتحترمنيش علشان بؤمن بشيء خارج نطاق العالم الملموس، علشان بؤمن بقوى أعلى مني؟ يبقا لازم تكره 90% من البشر..كل واحد فيهم بيؤمن بقوى ورا كل قوانا..الرب، الله، بوذا..
- ده مش إيمان يا كاسي! ده..ده..إيه؟! إنت ليه جبتيني هنا؟ عايزة مني إيه؟! إنت وهمتيني إنك حاسة بمشاعر ناحيتي ودلوقتي إيه؟ عايزاني انضم لنادي سحرة مثلا؟ انا ماعنديش أي تفسير للي كان بيننا ولا فاهم أي حاجة..كل شيء بيننا إنتهى أيا كان هو إيه..وطبعا مش هاجي انا ومراتي بيتك ده أبدا.

مشيت ناحية الباب وإكتشفت إن معاييش مصدر إضاءة أشوف بيه الطرق لبره. كاسي كانت قاعدة على الأرض وضهرها للحيطة ومرتاحة وهادية كأنها في مكتبها.
فجأة قامت ورمت حاجة على الأرض، كان برطمان في حاجة مقدرتش اميزها في الضوء الخافت. البرطمان إتكسر وكاسي غمغمت بشيء. فكت شعرها وبصيتلي. ابتسمت واستمرت في الهمس وهي ماشية ناحيتي كأنها قطة بتقرب من فريسة.
قلت لها:
- إنت محتاجة مساعدة يا كاسي..محتاجة علاج.
- مش زي ما إنت فاكر لا..الي بعمله هنا مش سحر ولا عبادة شيطان.. في هنا قوى عظيمة، والقوى دي عايزاك..إختارتك..
- كفاية كلام فاضي..إنت جبتيني هنا ليه؟ فاكراني هانضم للخرافات دي؟ مالك في إيه؟
- هي اختارتك يا إيريك..

- إزاي حد متعلم زيك يبقا بالجنون وإنعدام المنطق ده؟
- العجلة لفت يا إيريك..أنت مش أول واحد ولا هاتكون الأخير. إنت واحد منا دلوقتي.
- بتقولي إيه إنت؟!
كانت بتخلع ملابسها واحدة واحدة وهي بتقرب مني..كمية مشاعر متناقضة ملتني..قرف، كره، خوف، إنتباه..شهوة..
جسمها الضئيل كأنه منحوت من العاج الأبيض، مكانش في أي دهون على جسمها، ضلوعها كانت محفورة بإتقان شديد، وشعرها كأنه محيط ذهبي بيرمي أمواجه على رمل أبيض.
كانت شيء من ما وراء العقل..
همست في ودني:
- شايف، كل حتة عاقلة في جسمك بتقولك إهرب، بس للأسف إنت مجرد حيوان حبيس..علشان كده إنت هتنام معايا في المكان الي إنت بتحتقره ده ومراتك الحامل بتعيط لوحدها في البيت.
عضت ودني وبصقت الدم على الأرض، زقيتها لورا وقلت لها:
- إنت بتعملي كده ليه؟!
سؤالي كان جاف وخنقني، كرهتها وكرهت نفسي..كل واحدة خنت بريا معاها كانت مجهولة معرفهاش ولا بيننا اي صلة، بس كاسي كانت رئيستي..كاسي كانت مجنونة، كاسي كانت كل حاجة بتقزز منها وكل حاجة بشتهيها.
كانت واقعة على الأرض، إيديها كانت بتتسلق رجليا، ماكونتش قادر اتكلم ولا اتنفس..بس كنت حاسس بكل حاجة.
حاسس بنفسها أما قامت على وشي وصدري، وحاسس بملمس جسمها بين إيديا...
ما أخدناش أكتر من دقايق..ماكونتش مستوعب إن في حاجة حصلت بيننا أصلا.
همست في ودني:
- خلاص..
شتمتها، قالت لي إني مسخ زيها بالضبط..
- أنا مش مسخ!
- إنت لسه مصدق نفسك؟ بعد كل الي جرحتهم قادر تقول إنك مش مسخ؟

زقيتها بعيد عني وبدأت البس هدومي. دماغي كانت بتدق ومش قادر اقف على رجليا..كل عضمة في جسمي بتوجعني. غمضت عينيا ومسكت دماغي. قالت لي وهي بتولع سيجارة:
- روح لمراتك حبيبتك.
- وصليني، الكشاف معاكي.
- إديني فرصة أستمتع بالهدوء بعد العاصفة.
- كم رجل جبتيه هنا وعملتي معاه كده؟
- إنت بس.
- يا بختي.
- في مؤتمر في نيو أورليانز الأسبوع الجاي، تعالى معايا.
- ماينفعش نعمل كده.
- ليه إيه المشكلة؟ إنت مش غاضب مني، خليك صريح.. لو كان في حاجة نفسك فيها دلوقتي ممكن تكون إيه؟
فكرت، تخيلت مراتي وإبني بيبعدوا، كنت عايز أبقا حر مرة تانية..متحرر من كل شيء. كنت مشتاق لمكان هادي بدون بريا ولا الطفل..عايز اتسلق الجبال ومش عايزها ورايا مقطوعة النَفَس. كنت عايز كاسي بعضامها الباردة وقوتها وبشرتها الشاحبة. كل ده جه في بالي مرة واحدة وأدركت إني من زمان عايز أتخلص من بريا، ماكونتش عايز أبقا أب ولا زوج..عايز أتحررمن كل الي قيدني بيه الجواز.
بعدت الأفكار دي، كرهتهم ولمت نفسي عليهم. قلت لها:
- انا عايز ابقا سعيد مع مراتي.
- بتضحك على مين؟ إنت ما نمتش مع الطاووس في نيورليانز علشان بتحب مراتك.
- عرفتي منين موضوع الطاووس؟!
- سيرسي قالت لي.
- بطلي بقا..لو روحت المؤتمر معاكي هاتبعدي عني وتسيبيني في حالي؟
- طبعا.
كات متكومة على الأرض، وشها مزرق مكان ما ضربتها. صعبت عليا، ممكن تكون مجرد ست فقدت عيلتها وحياتها بسبب شغلها. عقلها أضطرب وعملت كل الأجواء دي علشان تبرر لنفسها استدراجها للرجالة واحتياجها الجنسي لهم.

قلت لها وان ببص على خدها المزرق:
- انا آسف.
- أنا بحب كده!
- هاروح معاكي نيو اورليانز بس مش هاينفع أجيلك أنا ومراتي بيتك، ولا هاينفع يحصل الي حصل بيننا ده تاني.
- ليه؟
- الي إنت عملتيه ده والطريقة نفسها ضايقتني..كل ده غلط..غلط جدا.

***

افترقنا بدون كلام، رحت لعربيتي لقيت بنت قاعدة جنب الطاووس في ساحة العربيات. كانت لابسة أبيض وابتسمت لي. حسيت إنها مألوفة فشاورت لها وشاورت لي. ماوقفتش أكلمها بس ماقدرتش انسى شكلها، بشرتها كانت شاحبة لدرجة إنها كانت بتشع في ضوء القمر، عينيها كانت سودا وبتلمع بلمعان النجوم في السما.
سوقت للبيت لوحدي، ولأول مرة افتقد رغي آندي ولطف جون. ركنت قدام البيت وفضلت في العربية فترة طويلة. ماكانش عندي طاقة أدخل وافسر لبريا سبب تأخيري ولا كان عندي طاقة أكذب.
بعد شوية شوفت بريا خارجة من البيت حافية وبتخبط على باب عربيتي برفق. فتحت الباب ودفنت وشي في بطنها. طبطبت عليا..وانا رفعت وشي شوفت سواد تحت عينيها، كانت مرهقة وخاسة. مسكت إيديا ودخلتني البيت. الدنيا كانت مقلوبة ومكركبة والأطباق مش نضيفة، وكان في كيس شيبسي كبير مفتوح على الترابيزة.
قعدنا على الكنبة شوية، كنت عارف إنها كانت بتعيط بس ماجاش في بالي اي حاجة تتقال. بريا بصت لودني وسألتني:
- من إيه العضة دي؟
- مريض هاجمني النهاردة. علشان كده إتأخرت. انا مخضوض شوية بس. المجنون نط عليا من وسط الأوضة وخربشني في جسمي كله.
- يا ساتر!

بدأت بريا تعيط، كنت مستغرب رد فعلها، قالت لي:
- أنا آسفة، إنت كنت في موقف زي ده وانا مخي كان عمال يوديني حتت تانية خالص تخليني اكرهك بدل ما أقلق على غيابك..دايما مخي بيصورلي أسوأ حاجة.
- أوعي تتأسفي، انا ما أستاهلش كل ده. إنت حامل ومشيله نفسك فوق طاقتك..أوعي تتأسفي لي تاني.
- لا..أنا السبب في كل ده..إنت ماكونتش عايز أطفال وانا دبستك. إنت كنت بتبعد وماكونتش فاهمة مالك، وفكرت إن ممكن طفل يرجعك ليا.
- بصي انا عندي مؤتمر الأسبوع الجاي، بعده اوعدك هابقا فايق ومركز معاكي وهايبقا عندي اجازة طويلة في الكريسماس نسافر فيها. ويوم الجمعة هانروح البحر عند اخويا..ايه رأيك؟
- مش كنا معزومين الجمعة عن رئيستك في الشغل؟
- تتحرق بقا، انت أهم عندي.
حضنتني في فرح وقالت لي:
- معلش استحملني، إنت عارف هرمونات الحمل واللخبطة دي. ده أنا حتى حاسة إني بتجنن..تفتكر من الهرمونات برضو صح؟
- مش فاهم؟
- كنت برجع في الحمام، وغسلت وشي ولسه بفتح عينيا شوفت حاجة بشعة ورايا...عارفة إني ممكن اكون دايخة أو كده، بس اترعبت جدا واتصلت بماما من الخوف.
- شوفتي إيه؟
- بص هي حاجة كأنها واحدة ست، بس كانت متغطية كلها خنافس وحاجات ملزقة كده..غالبا قيء..انا مش قادرة اسيطر اصلا على موضوع القيء ده خسيت كتير.
أكيد صدفة..لازم تكون صدفة..ممكن اكون حكيتلها حلمي وفضلت الصورة في دماغها من ساعتها، وبسبب القيء ونقص التغذية هلوست بها.
- الدكتور قالك إيه على موضوع فقد الوزن؟
- قال لي أن في ستات بتتعاني من بعض صعوبات أكتر من غيرهم. إداني ادوية تقلل الغثيان بس بتتعبني أوي وتخليني مش قادرة أتحرك.
- هاجي معاكي للدكتور المرة الجاية. ميعاده إمتى؟
- بكرة

- هاتصل بكاسي وأطلب منها أجازة بكرة.
قلت لكاسي إني عيان، كدبت وهي كانت عارفة إني بكدب. كان باين إنها مبسوطة إني أخدت أجازة وماسألتش أسئلة كتير. كلمت أندي وقلت لها إني من يوم الإثنين هاروح وأرجع معاهم ومش هاتأخر تاني في الشغل لأن مراتي حامل. آندي فرحت وطلبت تكلم بريا وعرضت عليها تساعدها في أي حاجة من أي نوع.
كان فاضل حوالي إسبوعين واخلص من كاسي للأبد، وهاشتغل مع دكتور كليمينت وهابقا زوج وأب مثالي. هسافر مع كاسي زي ما هي عايزة واعمل الي عايزاه وبعدها مش عايز أشوف وشها تاني. الأحلام المزعجة هاتتوقف، والقلق هايروح، وهاخد بريا ونشتري بيت في فولي جنب عيادتي.
كل ده هايعدي..وهافتكره وأضحك..

***

نمت على بطن بريا، وصحيت نص الليل لقيتها في الحمام تاني، ورحت اجيبلها كوباية ميا ولقيت حاجة مفزعة..
مخلوق صغير في حجم القطة كان ماشي على ترابيزة المطبخ، كان بيتحرك بسهولة كأنه في بيئته الطبيعية..
اما دققت عرفت إنه شيء من الزواحف، لكنه في نفس الوقت له طابع حَشري واضح! بص لي بعينه الصفرا المشقوقة وغمز!
كان ماشي على أربع إيدين زي القطة، بس ديله كان طويل كأنه أفعى بيهزه يمين وشمال في كسل. فضل باصص لي كأنه مستنيني أديله بسكوتة زي الكلب! وقعت كوباية الميه مني وإتسمرت مكاني مستني أصحى من الكابوس.
صرخ الكائن صرخة شبه صوت الرُّضع، وهجمت ريحة لحم معفن خليتني اكح.
حسيت بالخنافس قبل ما أشوفهم، كانوا بيتسلقوا رجليا، وكنت عارف مصدرهم..كنت شايفها في الركن، ريحتها بتخليني هايغمى عليا. دم أسود كان بينز منها وغرق السجادة..وفجأة إختفوا زي ما ظهروا.
صرخت بريا وفوقتني صرختها من تكتيفتي. جريت على الحمام وكسرت الباب ودخلت، كانت على ركبها قدام التواليت وعماله تهز شعرها في جنون.
- في شعري! خرجه من شعري!

بصت لي وعينيها مذعورة وقالت لي:
- يا ربي! الخنافس مغطياك!
فضلت تنفض شعرها وتخبط راسها وجسمها في البانيو والحيطان وهي بتطلب مني أخرج بره.
بصيت لرجليا ولقيت على الأقل عشر صراصير كبيرة على البنطلون. جريت على بره ونفضتهم من عليا وقتلتهم برجليا بعنف نادرا ما بيظهر عليا أما بقتل حشرات لأني مابخافش منهم أصلا. أما إتأكدت إن مافيش حشرات عليا دخلت الحمام وطلعت الصرصار الي في شعرها وقتلته.
كانت مرعوبة وعمالة تقول:
- مافيش حد بتاع حشرات؟ قصدي طارد حشرات..شركة..اي حد بتاع طواريء!
- إهدي..أنا قتلتهم كلهم مافيش تاني، وهاكلم شركة الإبادة الصبح.
- إنت إزاي هادي كده؟ دول كانوا طالعين على رجليك!
ماكونتش هادي، كنت مذهول وفوقت، وده معناه إما إني إتجننت أو إن الحلم طلع معايا للحقيقة. بريا ماقدرتش ترجع تنام تاني لأنها كانت خايفة يكون في حشرات.
- ياللا نروح فندق ولا حاجة يا إيريك، ياللا نروح أي حتة بس النهاردة لحد ما البيت ينضف.
أنا كمان ماكونتش قادر أنام، وقضينا الليلة في أوتيل قريب، ونامت هي زي الأطفال بس أنا مقدرتش أنام..أحلامي جت ورايا وهلاوسي كانت بتقطع روحي.
الصبح إتصلت بريا بشغلها وطلبت إجازة وقال لي:
- هايموتوني..أنا لسه شغالة جديدة وعمالة آخد أجازات ولسه هاخد أجازة ولادة كمان..أنا مابحبش أبقا أسوأ موظف في أي مكان بالمنظر ده..هايرفدوني.
- إنت فعلا تعبانة، بس ماكنتش أعرف إنك بتاخدي أجازات كتير.
- هو إنت عارف حاجة أصلا؟ إنت حتى ما بتتصلش بيا من الشغل تتطمن عليا..إنت عارف إن أختي هاتتجوز؟ طبعا ماتعرفش..ماتعرفش أي حاجة عنا..في إيه؟

- قولتلك إني بس إترعبت من فكرة الأبوة المفاجأة. أنا مش عايز ابقا أب ولا عايزك في النهاية تبقي مجرد أم وخلاص. معنديش حتى أدنى فكرة عن الأبوة.
- كان ممكن تقول لي كده، مش تتجاهلني. أنا عارفة الأطفال كويس وعندي قرايب يسدوا عين الشمس، كنا عاملين زي مزرعة أطفال وإحنا صغيرين من كتر عددنا. هاساعدك وهانلاقي حلول بس مش معقول تهرب مني كده.....ماتسيبنيش..أنا خايفة أوي، خايفة لا حاجة تحصل للبيبي وحاسة إني تعبانة جدا..
- آدينا رايحين للدكتور النهاردة، وهانشوف في إيه..ماتخافيش.

***

الدكتور طمننا على الجنين وكتب لبريا أدوية ومقويات وطلب منها ترتاح وتاكل كويس، وأخيرا بريا مزاجها إتحسن وفعلا بقت أفضل.
شركة رش الحشرات جت وكنا لمينا هدومنا وروحنا بعدها لأخويا.
جيريمي اللي كان مبسوط أنه شافنا، وحضرلنا أوضة الضيوف الي كان عفشها من طراز تمانيناتي جدا. كل شيء في الأوضة كان بمبي وورق الحائط كان منقوش بنقشة ورق نخل أخضر كبير. السجادة كانت خضرا ومن عمر جيريمي إن مكانتش أكبر. مكانش في الأوضة أثاث كتير، كرسي هزاز، أباجورات، وسرير.
بريا كانت سعيدة وفضلت تشكر جيريمي على كرمه وإستضافته لنا. مراته كانت عند أهلها لذلك جريمي حاول يضايفنا على قد ما يعرف. كان بيعمل لنا بيض وبيكون الصبح في الفطار، بعدها بنخرج كلنا أو أنا وبريا وبناكل بره.
بريا كانت بتنام بدري بعد ما تاخد أدويتها وبفضل لوحدي بعدها.
الشقة كانت قديمة ومتهالكة، لكن كل قيمتها إنها على الشاطيء مباشرة، وطبعا جيريمي كان بيحبها أوي، وكنت بكرهها.
قعدت معاه بعد نوم بريا في البلكونة الضيقة والمنظر كان ممتاز، السما كلها باينة والبحر والرمل والبيوت الغالية الي بتطل عليهم.
قال جيرمي في سعادة بكلماته البسيطة الريفية:
- يتربى في عزك! مراتك نورت كده وزهزهت..عرفت ولد ولا بنت؟
- لا لسه شهرين كده، بس بريا دايما بتدعي تجيب بنت.

- هي كويسة؟ أصل تحسها من جوه تعبانة كده بس مش مبينة.
- تعب الحمل، وإمبارح الصراصير هجمت علينا فبقالنا يومين صاحيين.
- كويس إنكم جيتوا، تغيير الجو مفيد وياعيني تلاقيها هاتطق من جنابها من القعدة لوحدها.
- عرفت منين؟
- إتصلت بيا من كم يوم..لازم تعرف إنها مكانتش هاتكلمني إلا لو أتزنقت يا عيني..
- إتصلت بك ليه؟
- مكانتش عارفة توصل لك وكانت فاكراك معايا ولا أعرف إنت فين. كانت عايز حد يوصلها في حتة وقت الغدا..مش فاكر التفاصيل والله..تقريبا كان عندها مشكلة في الشغل. قلت لها إنك ما بتتصلش بيا ومعرفش إنت فين.
- أنا مابتصلش بك؟!
- أيوه..من ساعة ما نقلت الاباما مابتتصلش، كنت بتكلمني أكتر اما كنت في دترويت.
- يعني هاكلمك كل يوم ليه؟ عشيقتي؟!
- لا..أخوك..
خلص جيرمي البيرة الي في إيده وفتح علبة تانية وكمل:
- ولا حتى بتتصل بأمك..بقول إيه، إنت بتنام مع الريسة..خلاصة القول يعني.
- مش مشكلتك.
- لا مشكلتي..أنا أخوك ومربيك من ساعة ما كنت بتعملها على كتافي..أنا الي علمتك تخش الحمام وتعملها زي الرجالة وإنت واقف..يبقا إزاي أما الاقيك بتبوظ حياتك أقف أتفرج؟!
- أنا في مصيبة يا جيريمي بس مش ناقص تقطيم بقا.
- بجد؟!
جيرمي التفت لي وفتح لي بيرة وقال:
- طالما الموضوع غامق كده خد إشرب وفضفض.
- إيه الي حصل بينك وبين بروك يا جيريمي؟
- وإحنا في إيه ولا في إيه؟
- ما بقتش بشوفها خالص حتى لو كانت موجودة.
- كل الحكاية إنها ماعرفتش تخلف، سقطت تلات مرات وبعد التالت ده مابقتش تقرب لي. بتسأل ليه؟

- مش عارف. حسيت إني كنت بعيد فترة طويلة، ملاحظتش اللي حصل لكم غير دلوقتي.
- ولا يهمك..المهم في إيه؟ غالبا أنا البني آدم الوحيد في الدنيا الي إنت تهمه أكتر من اي حاجة تانية. وأنا الوحيد الي تقدر تقول له اي حاجة.
- أنا نمت مع كاسي، وقبل ما تقطمني، عايزك تعرف إن مكانش قصدي خالص..فعلا كنت معاهد نفسي ما أخونش بريا بعد موضوع البنت أم وشم دي، أحلف لك ما كان قصدي.
- إزاي بقا مش قصدك؟ سقتك حاجة صفرا؟
حكيت له كل حاجة، وحسيت إني إرتحت وكل غضبي داب قصادي في البحر.
- فهمت؟ ماكونتش عايز أنام معاها، بكرهها..بص لسه جسمي معلم من الي عملته معايا.
- دي حكاية ما تخشش العقل..بس مصدقك. بس إنت هاتروح معاها السفرية دي الأسبوع الجاي بجد؟
- فاضل لي أسبوعين مع الست دي ومحتاج شهادة كويسة منها عن شغلي. مش هابوظ ست شهور علشان كم يوم. فهاروح المؤتمر علشان أخلص..قول لي..هي بروك سابتك؟
سألته علشان أغير الموضوع، فقال:
- بقالها خمس ايام أهي عند أهلها، وما سألتهاش هاترجع إمتى لأنها أما مشيت ماقالتليش إنها ماشية. هي ما أخدتش حاجتها كلها فمش عارف هاترجع ولا إيه.
- إنت كويس طيب؟
- تفرق معاك؟
- طبعا..عارف إني ساعات ببقا عيل رخم، بس يهمني إنك تكون كويس..بص أنا ماكونتش بتصل بيك بس إنت كمان ماكونتش بتتصل.
- عندك حق.
دخلت نمت، وكان الجو بقا برد والشقة رطوبة ولقيت بريا بتترعش تحت الغطا. غطيتها كويس وحضنتها، كنت عايز أحكيلها كل حاجة، كنت عايزها تعرف لكن الخوف سكتني..إزاي ممكن أكسر قلبها كده؟

***

روي، الشاب الي في التالت، بعت لي رسالة مع واحد من الممرضين يوم الإثنين. إتفاجئت من تصرفه وماكونتش عارف إيه المفروض يتعمل. الرسالة مكانش فيها حاجة مهمة وأنا مش الطبيب المعالج بتاعه أساسا فماكونتش متأكد إيه الصح في المواقف دي.
حكيت لكاسي وقالت لي إن علاقتهم الطبية متوترة وبتواجه صعوبات معاه، وقال لي لو عايز أتابع أنا معاه مافيش مشكلة، ورمت لي ملفه في وشي ومشيت.
الدور التالت مكانش مألوف ليا وماعنديش فكرة الأوضاع الأمنية فيه المفروض تكون إزاي. أما طلعت لقيت روي قاعد على كرسي قدام الشباك في الردهة وكان نضيف ولابس هدوم نضيفة. قام وسلم عليا وقال:
- ماكونتش واثق إنك هاتيجي. تحب نتلكم هنا ولا نروح أوضتي أحسن؟
- أوضتك أحسن أكيد.
مشيت وراه لحد الأوضة وهو بيتكلم بصوت واطي ويقول:
- أنا عارف إني مجنون، وعارف إن الي هاقوله مالوش معنى. بس أنا مش قادر أستحمل ولازم أتكلم مع حد. فلو عايز تنفض لي قول لي وهاسكت. بس لازم تعرف رغم إني مجنون فكلامي مش بالضرورة مايكونش حقيقي.
- أحكيلي.
بدأ يتوتر ويقرقض ضوافره وهو بيقول:
- إنت عارف أنا هنا ليه؟
- أيوه.إنت عارف؟
- طبعا! بس الي محدش يعرفه خالص إني ماقتلتش عيلتي..بص..أنا عارف إني قتلتهم بس فعلا ماقتلتهومش! كنت بكره بابا وماما ساعات بس هم كانوا بيجبروني اروح الكنيسة كل شوية واصلي وبتاع وأنا كنت عايز أعيش حياتي عادي. فإتصاحبت على شوية شباب بيحبوا السحر و كده..عارف السحر؟
- إنت كنت متمرد على الي بيؤمن بيه أبوك وأمك؟
- أيوه..بدأت بقا أعمل تعاويذ في أوضتي أحضر بيها شياطين. بس مكانش لها تأثير.
- عموما كنت بتشرب أو بتاخد مخدرات؟
- إسكت شوية وإسمعني..المهم مافيش سحر إشتغل معايا لحد يوم أمي خرجت مع أختي الصغيرو أبويا وأخواتي التلاتة كانوا في أوضهم بسمعوا إنشاد ديني سمج ده. فجأة ظهر لي وسط دايرة التحضير الي كنت راسمها على الأرض.

كأن الهوا نفسه إتقطع وطلع هو من الفتحة. كان شكله حيواني بعيد عن تصوري للشيطان..كان عامل زي القطة أم ديل تعبان. إسمه كان كال، وماقليش غير إسمه، ودي كانت آخر حاجة فاكرها قبل ما الاقي نفسي في الزنزانة في السجن. أنا ماقتلتهومش، كنت بحبهم.
- مكنتش بتعاني من هلاوس أو أي حاجة؟
- تقدر تبطل تبقا دكتور مجانين خمس دقايق بس؟ أنا ماحكيتش لحد الموضوع ده علشان المحامي قال لي كده. أنا إتجنت أما ماقدرتش استوعب الي انا عملته وحاولت انتحر تلات مرات..صورالي عملته بتلاحقني طول الوقت..
بكى روي تاني، وماقدرش يتكلم. مسح وشه في كُمه وبعد شوية بص لي وقال لي:
- انا ماحكيتش لحد الحكاية دي، بس لاقيتها عارفاه وعارفه إسمه!
- من؟
- دكتورة آلن!
- علشان كده مش عايزها تعالجك؟
- كال كان سابني في حالي، وأخد الي هو عايزه مني خلاص وضيعني..بس بدأت دلوقتي أشوفه تاني. بيفضل قاعد مكانك كده ويبص لي طول الليل..الدكتورة هي الي رجعته تاني علشان عايزة تموتني!
- ليه فاكر إنه عايزة تموتك؟
- لا، جابته علشان يموتني!
- دكتورة آلن عايزة تساعدك وتعالجك وإنت عارف إن الي بتشوفه ده وهم.
- يا سلام! مش عايزة تموتني؟ أمال ليه أخدتني معاها البدرم واغتصبتني؟
- نعم؟!
- أيوه..أخدتني وأجبرتني..أنام معاها.
-أعتقد إني لازم أبلغها إتهامك ونتكلم إحنا التلاتة سوا..الي إنت بتدعيه ده خطير جدا ومش هاكون مرتاح إني أتكلم معاك في الموضوع ده بدون وجودها ودفاعها عن نفسها.
- طبيعي إنها هاتقول ماحصلش.
- وارد تكون بتحلم حلم جنسي عنها، ده طبيعي وبيحصل مع أي حد. إنت واعي برغم مرضك، لكن إنت مقتنع إن شيطان هو الي قتل أهلك، وإن طبيبتك أستدعت الشيطان ده علشان تقتلك، ودي كلها حاجات مش صحيحة ومش واقعية ومفهوم إن عقلك الباطن يدخل دكتورة آلن في مشاكلك.

- غور من وشي..كنت فاكرك هاتساعدني، طلعت أي كلام.
- أنا فعلا عايز أساعدك..خلينا نفترض إن كل الي بتقوله حقيقي، أقدر اساعدك فيه إزاي؟
- أنا بس محتاجك تيجي وتبص عليا، ماتسيبنيش لوحدي معاها.. أرجوك.. ماتسيبنيش لوحدي معاها.
- اقدر أعمل ده..في أي حاجة تانية؟
- لا..بس في حاجة لازم تعرفها.. المكان ده مش تمام..في حاجة مش مضبوطة. مش قصدي إنه فيه عفاريت وكده لا، في حاجة أكبر. بص هو في هنا أشباح كتير، واحدة من الأشباح دي لطيفة وبتكلمني..إسمها جين..وقالت لي أقولك تبعد مراتك.
سألته في عنف واستنكار:
- نعم؟!
- هي قالت كده بس.
- بص، أنا هساعدك، بس ما تجيبش سيرة مراتي تاني أبدا وإلا مش هاتشوفني هنا تاني. فاهم؟
- أسف خلاص..آسف.
عديت على مكتب الأخصائي النفسي في الدور التالت وأتكلمت معاه بخصوص حالة روي والدوا الي بياخده، وبلغته إني أنا الي هاشرف على علاجه من هنا ورايح. أكدت على علاجه ومواعيده ومواعيد جلساته الأاسبوعية معايا، وحاولت ما أركزش في اللي قاله، لكن ما قدرتش أنساه.
الصدف كانت كتير اوي، وانا مش شخص خواف، بس بدأت فعلا أخاف.
وأنا بكتب تقاريري اليومية كان جسمي كل شوية تنفض، شعور غريب ملازمني، خوف من شيء مجهول. مش مقتنع إني خايف من كاسي، ولا قادر اتجاهل هلاوس روي...أو هلاوسي.
أنا خايف من سيرسي نفسها بظلالها وحيطانها العالية، وعويل المجانين المحبوسين جواها.
وقفت شوية في شباك المكتب أبص على المرضى تحت، وحاولت أأكد لنفسي إن كاسي مش مختلة لدرجة إغواء مريض عندها.
- عايز تعرف إيه الي هناك؟!
نطيت مكاني من الخضة! ماسمعتش خطوات كاسي وهي داخلة.
- لا شكرا..أخدت كفايتي النهاردة.

- المبنى والبرج الي كنت إنت بتبص عليهم دلوقتي، كانوا أول حاجة إتبنت في سيرسي. البرج ده وقع أربع مرات قبل كده و..
- مش مهتم أعرف صدقيني.
- قابلت روي صح؟ قالك إيه؟
سألتني بلهجة إحترافية زي ما بتسأل على أي مريض تاني. جاوبتها:
- معتقد إنك عايزة تقتليه.
- ماشي يقول لكل الناس كده.
- نمتي معاه؟
ضحكت بصوت عالي وسألتني:
- آسفة قلت إيه؟
- بيقول إنك أخدتيه لمكان زي الي أخديني فيه بالضبط، ونمتي معه.
- لا معلش ثواني..لازم أوضح لك حاجة، انا مابعملش علاقات مع المرضى، انا طبيبة نفسية محترفة. عارفة إنك مش حابب معتقداتي الخاصة، بس معتقداتي لا تعني إني أخرق قوانين المهنة. إحنا مش في العصور الوسطى هنا، فمافيش ساحرة بتغوي رجالة علشان تنام معاهم وتحضر بيهم شياطين..عارفة طبعا إن الفكرة نفسها مثيرة لأغلب الرجالة. طبعا غنت ماكونتش هاتصدق إدعاءات روي لو ماكوناش نمنا مع بعض صح؟ خلينا نكون صرحاء..من ساعة ما جيت هنا وأنا شايفة إنك وسيم ومثير بالنسبة لي، ماخططتش طبعا من الأول إني أنام معاك، بس الأمور مشيت في الإتجاه ده، وانت كنت موافق وفي كل مرة بنكون فيها سوا بيكون باين عليك أوي إنك عايزني. علاقتنا مش صح، بس لسه مقبولة عادي..في بيننا حاجات كتير تستاهل الإستكشاف.
ابتسمت في لؤم، وباست رقبتي وقالت:
- لو انا غلطانة قول لي، يمكن أسأت فهمك.
حطيت ايدي على كتفها وقلت لها:
- آسف، كلامك عن السحر شوشني إلى حد كبير.
ضحكت وحاولت اخبي خوفي وعدم ارتياحي. كانت لسه مستنياني أقول حاجة تاني..فكرت كتير وأخيرا قدرت أقول:
- اعتقد إن علاقتنا الخاصة لازم تنتهي. مراتي حامل، ومش عايز أكون زي والدي وأضر تربية إبني. انا بحترمك جدا بس مش هاينفع نكمل.

- مش هاقولك إني مش محبَطة..عموما الوقت مناسب لإنفاصلنا، كده كده مافاضلش في شغلك معايا كتير، والأسبوع الجاي هايحل محلك الإثنين المخابيل صحابك. هشوف هاقدر اعلمهم إيه.
- مكانش عندي اي انطباع إن في دماغك تعلمي حد من المتدربين.
ضحكت وقالت:
- لا يا شيخ؟! أنا طول الوقت بعلم الناس.. شوف نفسك وشوف إتغيرت قد إيه على إيدي.
- إنت معظمة نفسك اوي، إنت مش أول واحد أنام معاها بعد جوازي ومش مختلفة عنهم في حاجة. مراتي وإبني هم اللي غيروني، المكان ده غيرني، بس مش أكتر من كده.
- عموما لسه قدامنا إسبوع سوا، يمكن أقدر اعوض الي قصرت فيه معاك. جهزت شنطك علشان السفر؟

***

برجع كل يوم البيت بدري، وباخد بالي من بريا. وبقيت كمان بطبخ وبنضف الحمام.
حضرت كل جلسات العلاج بتاعتي، وقابلت روي مرة وإتكلم عن كاسي، وأنا سمعته..عيط كتير على عيلته..قلبي بدأ يميل للولد، وكل مرة بتكلم فيها معاه بحس إن مستحيل يكون شرير من جواه.
رغم كل نواياي الحسنة، إضطريت في نهاية الأسبوع أجهز شنط السفر. قعدت مع بريا في المطبخ وهي بتعيط علشان مسافر، ووعدتها إني هارجع أسرع وقت، لكن أول ما عربية كاسي وصلت قدام البيت خرجت بسرعة وودعتها بإبتسامة.
بصيت لكاسي في تعجب..كانت لابسة جيبة أبعد ماتكون عن الحشمة أو الزي الإحترافي..أول كم زرار في بلوزتها كانوا مفتوحين زيادة عن الضروري. مكانتش لابسة نضارة الطبية وكانت فاكة شعرها.
سلمت عليها وطلعت أكبر كتاب معايا وبدأت أقرا فيه.
كاسي كانت حاجزة حجرتين جنب بعض في الفندق، دخلت أوضتي وتجاهلت فكرة إنها في الأوضة الي جنبي، وقفلت على نفسي.

المنظر من شباكي كان تحفة، ولاقيت نفسي بفكر في بريا. كان هايعجبها المنظر أوي..تخيلتها قاعدة قدام الشباك متكورة على نفسها زي القطط وجميلة زي زمان.
طرقات كاسي على الباب طلعتني من تخيلاتي، فتحت من غير ما أفك سلسلة القفل.
- إيريك، تحب تشرب معايا حاجة؟
- فين؟
- تحت مش في أوضتي ماتخافش.
الجو كان بارد، طلبت مارتيني وطلبت كاسي مشروب بالنعناع..بعد فترة صمت قالت:
- بحب المكان ده..في كل حاجة هنا..الجنس، العبودية، الفقر، الإدمان، الإباحية، حتى البطولة.. لو بصيت حواليك كويس هاتشوف كل ده في الناس هنا...إريك، إنت جيت هنا ليه؟
- معرفش..ليه الناس بتتفرج على أفلام مصاصي الدماء؟ كل الناس عارفة إن مصاصي الدماء أشرار بس كلهم عايزين يتفرجوا عليهم..إنت سخيفة بس مش قادر أبطل أتفرج عليكي.
- عارف ليه الناس بتحب افلام مصاصي الدماء؟ لأن كل واحد بيحلم في سره إنه يكون مصاص دماء..أو على الأقل في قوتهم. بيحلموا يكونوا مختلفين، بره القطيع..يمكن ده السبب الي خلاك تيجي معايا، كنت عايز حاجة مختلفة، حاجة أكتر من مجرد لحم ودم.
- بقول إيه..إحنا لازم نصحى بدري علشان المؤتمر..أنا راجع أوضتي..عيشي حياتك.
أول ما وقفت، حطت إيدها على إيدي وقالت:
- هاتنام؟ ولا هاتدورلك على طاووس تاني؟
- بتتكلمي عن إيه؟
- إيه شوفتها هنا؟ البنت الي اغتصبتها؟
شديت إيدي منها بأعنف ما يمكن، كنت بحاول ما أضربهاش.
- مش فاهم بتتكلمي عن إيه إنت.
- البنت الي بتقرا الودع..مش فاكرها؟ أخدتها الحارة وزقيتها على الحيطة واغتصبتها.

صوتها كان هادي ومنوم جدا..قعدت ..قلت لها:
- عرفتي منين؟ أنا ما إغتصبتهاش، وعمري ما عملت حاجة مع واحدة بدون رضاها..أنا رجل متجوز..رجل كويس.
- لا.إنت عمرك ما كنت رجل كويس..إنت رجل بياخد الي هو عايزه. الستات بالنسبة لك لعبة وعمرك ما وقفت لحظة تشوف الي معاك عايزة إيه..
- إنت تعرفي إيه عني أصلا؟ إنت الي أغويتيني زي العاهرات!
- مابقتش قلقان على تقاريري عنك دلوقتي هه؟ مش قلقان على مستقبل ولا شغلك، مش هامك لو بكلمتين مني قضيت على اي فرصة لك لأنك حيوان!
- إنت ما تعرفينيش، ماتعرفيش أي حاجة عني..معرفش عرفتي منين البنت الي بتقرا الودع، بس إيا كان مصادرك، إنت ماعندكيش أدنى فكرة عن الحقيقة. البنت دي كانت واخداني بيتها..لسريرها..أغوتني وأنا غلطت.
- حكت لي.
قشعرت..كان في ست في حارة مجاورة بتغني أغنية دينية غطت على صوت الموسيقى في البار. أولاد بره بيرقصوا كلاكيت، صوت رجليهم كان بيرن في دماغي..سألتها:
- قارئة الودع حكت لك؟
- لا..إنت عارف مين الي حكت لي..سيرسي كانت بتكلمني من زمان..
- أنا قايم..
المرة دي قومت وبعدت فعلا. وقفت في حارة ضلمة لوحدي و فضلت أستعيد الليلة بتاعة قارئة الودع، مش فاكر البنت قالت لي إيه..كل الي فاكرة جسمها وإحساسه على جسمي..مش فاكر كانت موافقة على الي عملته معاها ولا لا..بس البنت ما زقتنيش أو بعدتني..كاسي مجنونة..
سمعت صوت خطواتها بتقرب مني، قلت لها:
- عايزة إيه تاني مني؟ سيبيني في حالي. أنا هاكلم دكتورة بابكوك عن تحرشاتك بيا وبروي..أنا تعبت..
- لو عملت كده، هاحكي لمراتك عن كل الستات التانية..كلهم. خصوصا البنت الصغيرة بتاعت الحارة.
- ليه عماله تقولي بنت صغيرة؟ مكانتش بنت صغيرة!
- فعلا؟ كان عندها كم سنة؟
- ما سألتهاش.

- أتناشر سنة..بلغت البوليس وحطوا ملفها مع ملف 700 واحدة تانية تم اغتصابهم من مجهولين. لو روحت البوليس ودليتهم عليك وقارنوا الحمض النووي بتاعك بالحمض النووي الي اخدوه منها أما بلغت هايقبضوا عليك.
- إنت عايزة مني إيه؟!
- عايزاك تعمل معايا زي ما عملت معاها..
- ماشي!

***

المؤتمر نفسه كان ممل..
في كل دقيقة كنا فاضيين فيها كنا بننام مع بعض، علاقة قذرة عنيفة في أي مكان وبأي وضع..
ماكونتش عارف أنا بعمل إيه، يمكن كنت عايزها تخرس..كانت بتفضل تحكيلي أدق تفاصيل حياتي وتقول لي سيرسي قالت لي..مين سيرسي!
آخر يوم في المؤتمر خرجت أمشي لوحدي وأدور على قارئة الودع. كنت عايز أبرأ نفسي من الجرايم الي بتهددني بيها كاسي.
فضلت ماشي في ميدان الكاتدرائية، بدور على بنت بطاووس على ظهرها. سألت كل الي لقيتهم قدامي وسألت في كل محلات أدوات السحر..محدش يعرفها..البنت كانت همسة دخان في حلم..
بس شوفت الشبح الي شوفته في سيرسي هنا، الست الي كانت لابسة أبيض. شعرها ملموم وأسود..شاورت لي فروحت لها..قال لي:
- إزيك..أنا جين!
ضحكت..سألتني:
- إيه اللي بيضحك؟
- واحد من مرضاي قال إنه يعرف شبح إسمه جين.
- مش يمكن كان قصده انا؟
- إنت مين؟ وتعرفيني منين وكنت بتعملي إيه في سيرسي؟
- أنا عارفاك وعارفة إنك بتدور على البنت أم وشم طاووس.
- هي فين؟
- مشيت..هربت..مش هاتلاقيها تاني..بس ماتقلقش، ماتقلقش..هي بتلوم نفسها على كل الي حصل لها، لو كانت هنا كانت قالتلك كده.

- إنت مين وبتعملي إيه هنا؟
ضحكت ومشيت ودابت وسط الزحام. فضلت واقف مكاني باصص على المكان الي كانت فيه، وأخيرا قدرت احرك رجليا وأروح أقعد على مقعد قدام الكاتدرائية واحط دماغي بين إيديا..مش فاكر قعدت على الوضع ده قد إيه لحد ما لاقيت كاسي جت وقعدت جنبي...مش مهم..خلاص إتعود على صوتها المُخدر.
- مالاقيتهاش هه؟ إيه رأيك؟
- إنت إيه؟تعرفيها منين؟ قريبتك؟!
- قلت لك، سيرسي وريتني كل حاجة.
- من سيرسي؟!!
- الي بتجيلك في أحلامك..الي جمعتني أنا وإنت في البدروم في الليلة إياها.

كل الغضب الي جوايا إتجمع في عقدة في زوري، قلبي كان بيدق في ودني، ومافيش حاجة كانت في بالي إلا بريا والبيبي..بريا شافت سيرسي دي..
إتحول الغضب جوايا لهلع، مش خوف على نفسي إنما على مراتي..لو إن في فرصة واحد في المليون إن المخلوق الي بشوفه في أحلامي حقيقي فبريا في خطر.
سألتها:
- إنت بتتكلمي عن إيه بالضبط..وضحي.
- إنت مش عارف؟ كنت فاكراك عارف.
كان باين إنها مُحبَطة من إجابتي..
- عارف إيه بالضبط؟ أنا مش فاهم إنت ليه بتلعبي اللعبة دي كلها عليا؟
- إنت ماشوفتهاش؟ المخلوقة..الشيء...
- كل الي شايفه شمطاء بائسة بتستغل سلطاتها علشان تتحرش بمتدرب عندها.
معرفش عرفتي الي عملته زمان منين، بس مش دورك تخيني أتوب عن ذنوبي، إنت مش رجل دين.
- إنت أصلا تقدر تتوب؟ كنت فاكرة إنك بدون ضمير.
مش عارف ليه بتكرهني كده، الكره كان بينقط من لسانها..قلت لها:
- مش هاعمل نفسي فاهم، ومش عايز دكتورة بابكوك تتدخل في الموضوع، انا كمان هخسر كتير زي ما أنت هاتخسري. خلينا نعتبر إن كل الي حصل ما

حصلش، اديني تقدير كويس ومش هانتكلم عن الموضوع ده تاني، مش هاتشوفيني حتى الأسبوع الجاي خالص وانت ماتحاوليش تشوفيني.

كاسي كانت محتارة ويائسة ومشوشة، سألتني في إستجداء:
- إنت فعلا ماشوفتهاش؟؟
- مش فاهم بتتكلمي عن مين؟
كدبت عليها تاني، ماهياش إله بالتالي ماتعرفش كل حاجة والدليل إنها شكت في معرفتها أهي. مدت إيدها ولمست خدي، كان في دموع في عينيها وماقدرتش أسألها عن سبب بكائها. برغم كل الغضب الي جوايا ناحيتها بوستها.. واضح إن الكره والغضب بيتحول ناحيتها لرغبة معرفش ليه. يمكن كاسي عندها حق..أنا حيوان..
نمت معاها لآخر مرة ليلتها، والصبح غادرنا نيو اورليانز في صمت..كنت حاسس إننا الإثنين فقدنا أرواحنا في مكان ما في الممرات تحت المستشفى.

الفصل الخامس

بريا كانت في إنتظاري، كانت شاحبة وضعيفة وهي بتعمل تمارين يوجا الحمل قدام التتليفزيون. بصت لي، وعرفت فورا إن في حاجة غلط، بس ماتوقفتش عن تمارينها..
كان في رياح بره، وحسيت ان البيت بيتهز في الضلمة من قوتها.
كنت تعبان ومرهق، بصيت لمراتي الجميلة الي عمرها ما كدبت عليا وعمرها ما عملت إلا اللي فيه مصلحتي. وراها كانت اطنان من التضحيات..إتجوزتني وهي صغيرة وضحت بطموحها علشان طموحي..وبرغم كل ده كرهتها، علشان كل ده كرهتها.
وأدركت إني عمري ما شوفت بريا، طول الوقت كنت شايف إنعكاسي فيها.
تعبت من الكدب، وتعبت من خيانة الشخص الوحيد الي بيحبني..
رميت شنطتي على الأرض وقعدت جنبها. قلت لها:
- لازم اقولك حاجة..
- غريبة..حاسة إني شوفت كل ده في حلم، يمكن الحمل خلاني مستبصرة!
- أنا آسف..
- آسف على إيه؟
- أنا وكاسي..
قاطعتني بريا في غضب:
- كنت عارفة!
- صدقيني ما قصدتش، بس أنا غلطت ..غلطت كتير..بريا، أنا ماكونتش دايما رجل محترم.. كاسي كانت عارفة كل أخطائي وكانت بتهددني بيهم. ده مش عذر طبعا، بس كنت حاسس إن مافيش قدامي أي إختيار. كلامي ده مش طلب للمغفرة، أنا بس بوضح لك لأنها ست مجنونة وأنا ماكونتش عارف أعمل إيه. كنت ضايع.....
إتخنقت بكلامي، غرقت في ندمي الضحل، الدموع غطت وشي..
- ...دلوقتي هي بتعمل تصرفات راعباني..ما أقدرش أخونك أكتر من كده، أنا بحبك، وبحب إبننا..مش عايز خيانتي دي تدمر عيلتي، بس أنا فعلا خايف من الي ممكن تعمله..

صوتي كان بيرتجف من الخوف والحزن، كنت عارف إن اعترافي ممكن يخليني افقد بريا للابد، بس البديل كان خطر..السكوت خطر..
- أقسم لك يا بريا إن دي آخر مرة، أنا إتغيرت..عارف إن كلامي ده كليشيه وإتقال الف مرة بس اوعدك..أقسم لك إن الجزء الخاين مني مات للأبد.
فضلت بريا باصة للتليفزيون وقالت:
- طول الوقت كنت عارفة..أمي كانت دايما بتسألني ليه مستحملة خيانتك، كنت بقولها إني كل الستات بالنسبة لك فرائس، لكني بالنسبة لك إلهة..فين هالاقي رجل تاني شايفني إلهة؟ كنت متعايشة مع أخطائك، بس مؤخرا الوضع إختلف..الطفل الي جاي غير كل حاجة، كمان مابقتش قادرة أستحمل إنك تكون معاها..مكانش فارق معايا الستات الي كنت بتعرف ليوم واحد، بس دكتورة آلن كانت حقيقية، بتشوفها كل يوم، كت خايفة تكون حبيتها.
قامت بريا، جريت وراها وركعت قدامها ودفنت وشي في رجليها.
- لا! أرجوكي..سامحيني..أنا بكرهها، دي مجنونة! دي عاملة معبد وثني تحت المستشفى ومعتقدة إنها ساحرة! بتنام مع العيانين وأبتزتني علشان أوافق اعمل علاقة معاها.
- ساحرة؟!
- هي مقتنعة إنها ساحرة، مجنونة!
مسكت إيدين بريا وأنا لسه راكع قدامها وحكيت لها كل حاجة من أول قرائة الودع لحد جين الي شوفتها في الميدان إمبارح. حكيتلها عن أبويا وخوفي أبقا زيه..
كانت بتطبطب عليا وتملس على شعري كأنها أمي..
- عمري ما شوفتك كده..كنت دايما هادي ورزين، مين هايسندني لو إنت ضعفت كده؟
- سامحيني..
- كنت مسامحاك من قبل ما تدخل من الباب أصلا. بحبك، بحبك كلك وبكرهها. لازم توعدني إن حتى لو فقدت شغلك مش هاتخليها تلمسك تاني.
- أقسم لك بكل شيء آمنت به في يوم..
- أنا لازم أتكلم معاها..
- عايزة تكلمي دكتورة آلن؟!
- أيوه..لازم.
- بس خلاص كل حاجة إنتهت، مش شايف ضرورة لتورطك في الموضوع.

- أنا مش زيك يا إيريك، أنا مؤمنة بالله وبوجد الشيطان ومش عايزة واحدة وثنية مشعوذة تلعنني أنا وإبني. لازم أكلمها.
- صدقيني ماعندهاش أي قوى خارقة يعني، آخرها شوية الترانيم الي بتقولها في البدروم.
- عارفة، بس أنا مؤمنة بوجود السحر ومؤمنة بالخرافات..ببعد عن القطط السودا ومابمشيش تحت السلالم..عارفة إن الخرافات خرافات ومافيش حاجة هاتحصل لي لو ما تشائمتش، بس ليه نجرب القدر؟ بعد كل الي إنت عملته مالكش عين ترفض لي أي طلب.
- خالص..لو عايزة تبيعيني في سوق العبيد مش هاعترض.
إتكورت بريا على الأرض ونامت على رجلي.. فضلنا كده ساعات..
بعدها إتصلت بريا بكاسي، معرفش قالوا إيه، بس تاني يوم كاسي أطرت على شجاعة بريا واعتذرت لي عن الي حصل في السفرية.
بريا كانت إلهة، وكانت خسارة في العالم ده.

***

بكى روي أما عرف إني ماشي خلاص. إترجاني افضل وما اسيبهوش مع كاسي. قال لي إني الوحيد الي سمعه وصدقه. إستغربت من نفسي إني كنت بسمع منه ومابحاولش أغير من تفكيره، كأني قاعد مع واحد صاحبي مش مريض عقلي. قلت له:
- ماتخافش، كاسي مش هاتعالجك تاني، انا نسقت مع صديقي الدكتور جون ميريك هو الي هايشتغل بدالي هنا. هو شاطر جدا وانا بثق فيه.
- وعد؟ أصل مش هاينفع أشوفها تاني..هاموت نفسي!
- انا قعدت مع الدكاترة هنا وكلهم متفقين ان ماينفعش طبيب يعالجك وهو بيثير فيك كل الرعب ده لأي سبب يعني. دكتور جون ميريك هايتابع معاك بعد موسم الأجازات..ثق فيا.
- في مكان زي ده، الثقة بتكون صعبة أوي.
- ممكن تثق فيا أنا، مش هاكذب عليك.
-هاتيجي تتكلم معايا تاني؟
- أول ما يبقا عندي وقت هاجي مع دكتور جون.
- ودكتورة آلن؟ هاتيجي؟

- بصراحة ما أقدرش اضمن إنها ماتجيش خالص من ورانا، بس هي مش هاتكون الدكتور الرسمية بتاعتك.
جون كان واقف بره الأوضة مستنيني أنادي عليه علشان يقابل روي. أما دخل جون أبتسم ومد إيده لوري وقال:
- سمعت عنك كتير يا روي، وهاكون سعيد بمساعدتك.
- شكرا.
- حسب كلام دكتور إيريك، فإنت واعي ومتعاون أكتر بشكل أكبر من المكتوب في ملفك. مش هاتقل عليك النهاردة، انا بس حبيت أشوفك مع دكتور إريك قبل ما يمشي.
برغم إبتسامة جون وطريقته المتعاطفة، لكن روي كان مزاجه سيء. إنبهرت بمهارة جون واسئلته المحددة وقدرته على كسر مقاومة روي للكلام من أول مرة.
إتطمنت على روي معاه، كانت دي آخر مقابلة شغل قبل الكريسماس وتبديل أماكن التدريب. كنت مرتاح إني مش هاشتغل مع دكتورة آلن تاني.
في رحلة عودتنا لبيوتنا المرة دي، حسيت قد إيه إتعودت على آندي وجون، كانوا أصدقاء بجد وندمت إني ما قربتش منهم كفاية الست شهور الي فاتوا.
قال لي جون:
- الصراحة مش متشوق خالص للشغل مع أمنا الغولة.
- دي ست مختلة يا عمنا.
قالت أندي:
- سمعتها سابقاها. مش فاهمة ليه مشغلينها لحد دلوقتي، من الي سمعته عنها المفروض كانت اترفدت من سنين.
قال جون:
- سايبينها يخوفوا بيها العيال الصغيرة!
ردت آندي:
- هو إحنا ناقصين خوف. إريك، إيه الي حصل بينكم؟ الإشاعات مالية الدنيا، أيام تبقوا لازقين لبعض، وأيام مافيش حتى سلام. بيقولوا إنها ساحرالك.
- بتجيبوا الكلام ده منين؟ مافيش عندنا في قسم الحالات المزمنة اللت والعجن ده.
- أولا أنا ست، والستات بترغي وتعرف تجيب قرار كل حاجة. الست دي مجنونة.

سألها جون:
- يعني إيه مجنونة؟ عندها إضطرابات ذهانية مثلا؟ إحنا دكاترة ومش هاسيبك تقولي أي مصطلحات مش دقيقة كده..حددي.
قلت لهم وانا بحاول أخفف من وطء الإشاعات على نفسي:
- بيقولوا إنها ساحرة، وبتخوف المرضى، وبتخوف المتدربين أصلا قطعت خلفي!
ضحك جون وقال:
- وقعت وما حدش سمى عليا! انا مؤمن بالحاجات دي وشكلي هاتلبش!
قالت آندي في عقلانية:
- بجد بقا، في حاجات تانية خالص قلقاني..انا كنت بدعبس ورا الحوادث الي إنت حكيتلي عنها يا إريك، وعرفت إن باقي الأقسام مافيهاش نسبة الوفيات دي خالص. عارف أغرب حاجة إيه؟ مافيش ولا جريدة جابت سيرة عن الحالات الي انتحرت او اتقتلت هنا! ومالاقيتش أي حاجة عن تاريخ سيرسي في أي حتة. الحاجة الوحيدة الي لقيتها كانت في مدونة بتكتب فيها مريضة سابقة هنا..المدونة إسمها (تاريخ من الجنون)..طبعتلك صفحة منها أهي.
كل يوم كانت بتنزل قصة بتقول إن شبح ممرضة إسمها جين كانت بتحكيهالها وهي في المستشفى. طبعا المدونة دي مش مصدر معلومات يُعتمد عليه بس كاتبة حوالي 20 حادث غريب حصل وهي في سيرسي كمان مش من حكايات جين دي. كاتبة كمان إن العاملين في قسم الحالات المزمنة محبوسين هنا بسلطة من قوى خارقة في المكان. طبعا واضح إنها بتعاني من مشاكل كتير في عقلها، بس ذكرت أكتر من تلاتين مرة في كتاباتها إن دكتورة كاسندرا آلن مسئولة عن كل الحوادث في المستشفى! وبتقول كمان إنها كانت بتمارس الجنس مع المرضى في بدروم وبتعمل طقوس سحرية غريبة. الجرايم الي بتحصل في سيرسي بيتغطى عليها وماحدش بيكتب عنها في أي مصادر رسمية.
سألتها:
- وليه السلطات تتستر على الجرايم دي؟
- معرفش. ممكن كاسي بتقفل على المواضيع قبل ما دكتور بابكوك تعرف بيهم. ممكن كاسي تعرف ناس في الشرطة؟ المهم إن في بعض الحوادث المريبة في قسم الحالات المزمنة محتاجة تحريات.

المهم يا إريك، اكتبلي كل حاجة عن الحوادث الي حصلت خلال الست شهور الي كنت فيهم في القسم، وانا وجون هانعمل كده الست شهور الجايين، وفي نهاية تدريبنا هانسلم تقاريرنا دي لدكتورة بابكوك وتقرر هي إيه المفروض يتعمل. هي ست جد وموثوق في نزاهتها.
قال جون بعد دقايق من الصمت:
- كنتوا هاتنسوني! إنتوا معزومين على العشا عندي النهاردة، خطيبتي مهدداني لو ماعزمتكوش هاتعزم هي زمايلها في الشغل وبصراحة ما يتعاشروش، هاتوا بقا زوجاتكم وعيالكم وأي حد تعرفوه علشان تنقذوا أخوكو.

ضحكنا وأتكلمنا في تفاهات لباقي الطريق، مع إختفاء المستنقعات ورانا، حسيت أخيرا إني روّحت بيتي..

***

فورا إتصاحبت بريا على آندي، الإتنين فضلوا طول عزومة العشا عند جون قاعدين جنب بعض. قضينا كلنا وقت ممتع جدا، شربنا وضحكنا وإتريقنا على المستشفى وزمايلنا. المهم، بريا كانت سعيدة بالقعدة دي وبلقاء زمايلي.
خطيبة جون، أنجيلا، كان ست قوية ومحامية شاطرة. قادت بشخصيتها القوية مسار الحديث ومكانتش بتقبل تتغلب من أي حد أو إن حد مايقتنعش بوجهة نظرها.
جون عزمنا على زفافه في فبراير، وآندي تطوعت تتولى تجهيزات سبوع إبننا وزفاف أنجيلا وجون. المستقبل كان واعد بالنسبة لكل واحد فينا، حتى مستقبلي الممل كان مشرق وسط أحلامهم.
كل الي كنت خايف منه بعد خالص عن تفكيري ساعتها..زوجة، أطفال، شغل مستقر، بيت على البحر..لأول مرة في حياتي كل ده يبقا مريح جدا وممتع، طول عمري كنت بلوم بريا على فشلي في تسلق الجبل، على تدريبي في مستشفى أي كلام، على الاباما وعلى الطفل..وكل الي كنت بلومها عليه زمان بقا هو النور الوحيد في العتمة.
مابقتش عايز أكون الحيوان الي كاسي شايفاه.

اما الليلة إنتهت ورجعنا البيت، بريا كانت مبسوطة جدا وحاسة إنها اخيرا عاشت حياة طبيعية زي باقي الناس. قالت لي بريا وهي داخلة الحمام:
- أنا عايزة حياة عادية خالص، عايزة اعمل حفلات عشا وبيت مليان أطفال، عايزة أولادي يكون عندهم أجداد..
- البركة في مامتك هاتبقا تيتة عظيمة.
- لا..إحنا لازم نقول لمامتك كمان..طالما هانعيش حياة طبيعية يبقا لازم تحل مشاكلك معاها..روح يا إريك شوفها وسلم عليها وقول لها إنك هاتكون أب.
- أكيد جيريمي قال لها.
- لا..إحنا الي لازم نقول لها..الطريقة الوحيدة علشان تتخلص من مخاوف الماضي هي إنك تبني مستقبل جديد.
- إيه هاتترشحي في الإنتخابات الجاية!
- ماتهزرش..بتكلم بجد. انا كلمت بابا وماما ووافقوا يدوني مقدم بيت جديد جنب عيادتك، أنا عايزة البيت قبل ما أولد.
- أنا عارف إني مقصر معاكي ماديا، بس مش مرتاح لفكرة السلف من أهلك.
- إنت مش هاتستلف حاجة، أنا اللي هاستلف. عايزة أولد ابننا في بيت حقيقي بتاعنا..عايزة انقل لفولي وابعد عن الساحرة دي.. مجرد ما الاقي بيت مناسب هايكون فاضل شهور بسيطة على إنتهاء تدريبك وننقل فيه فورا أول ما تخلص. ماتاخدش موضوع السلفة بحساسية إحنا واحد.
- فاهم طبعا.
- أنا سيبت حاجات كتير علشانك وعملت حاجات مابحبهاش علشان أكون معاك في اهتماماتك..فأرجوك ثق فيا مرة واحدة وأعمل الي بقولك عليه. خلي عندك عيلة وبيت..انا عايزة عيلة وعايزاك، لكن لو بوظت كل ده تاني مش هاقدر أستمر معاك.

الفصل السادس

معركة المحارب الحقيقية، تلك التي تكون بينه وبين ذاته.

المحارب الروحي

***

مافيش أي ثلوج بتنزل في موبيل.. فكرة الكريسماس الحر غريبة ومحسساني إن في حاجة غلط.
المتدربين في سريسي كانوا في أجازة لمدة أسبوعين على عكس باقي العاملين الي كانت أجازاتهم أقصر. كنا كده كده محتاجين نفصل قبل التبديل بين الأقسام.
قضينا أغلب الأسبوع الأول من الأجازة أنا وبريا مع أصدقائي الجدد. الخروج اليومي والتعرف على الناس خلى بريا تتشتت عن التفكير في خيانتي لها..هي بالفعل ما سامحتنيش بالكامل.
آه كنا بنرجع البيت بليل ونضحك ونتكلم بس علاقتنا مارجعتش زي الأول.
كنت بجيبلها ورد كل يوم، وبتحاشى النظر حتى لحذاء أي واحد تانية. أنا إتغيرت، الخوف حرق كل طباعي القديمة. كل الي عايزه دلوقتي هو مراتي وإبني.
بريا كانت بتنام كل يوم بدري بسبب أدويتها، ومكانتش بتلمسني أبدا. القيء توقف وبدات تاكل بشهية، مافيش حاجة مابقتش بتاكلها.
مع سفر آندي وجون لأهلهم علشان الكريسماس، بقينا أنا وبريا لوحدها، محدش معانا غير ذنوبي القديمة.
بريا خططت لباقي الإجازة بمعرفتها وكان لازم أسمع كلامها. البداية كانت برحلة إجبارية لأورانج بيتش علشان نزور أمي في بيتها على البحر. الجو يومها كان سيء وقلب عاصفة رعدية والبحر كان عالي جدا.

ما شوفتش أمي من أربع سنين، ونادرا ما كنت بتصل بها..ماعنديش سبب معين ورا البعد ده كله، ماكونتش بحب أتكلم معاها وكنت تعبان من الإحساس بالذنب إني مقصر معاها. أيا كان الجهد المبذول علشان ارضيها كانت دايما بتحسسني بالتقصير. فبدل الظلم ده بقيت بقصر عن عمد.
وقفنا قدام البيت الوردي الي كان بيفصله عن الأمواج ممشى طويل، ورنت بريا الجرس. إرتحت إن جيريمي هو الي فتح الباب وحضنني. بروك مراته مكانتش هناك، بس هو كان شارب وبيضحك.
البيت كان نضيف ومرتب بس مكانش في أي ملمح من ملامح الكريسماس.
جت أمي وقالت وهي بتحاول تبتسم:
- الإبن العاق وصل!
بوستها على خدها بوسة مجاملة وقلت لها:
- أنا مش عاق.
امي كان شكلها متغير لدرجة إني لو شوفتها في الشارع ماكونتش هاعرفها. عمليات التجميل عملت منها شخص أصغر كتير في السن بس بدون روح. عينيها كانت مشدودة لفوق وبشرتها منورة بشكل صناعي رخم.
- طبعا مش عاق..
جيريمي حط دراعاته حوالين كتافنا أنا وامي، وقال:
- بلاش مناقرة النهاردة. النهاردة ليلة مفترجة والصبح إيريك ومراته هايسافروا فبلاش ننكد على بعضنا.
أمي مكانتش طابخة، أشك إنها كانت تعرف أي شيء عن الطبخ. وضعنا كان غريب وإحنا قاعدين على البحر على مائدة فاخرة مافيهاش إلا بطاطس ولحم مجفف في الكريسماس!
كنت متعود على كريسماس بريا، وديكور شجرتها الي كانت مجمعاه طول عمرها، كنت بحب أبوها أما كان ياخدنا كلنا الكنيسة بما فيهم صدف أمها، ووحشني جلوسها في ركن الكنيسة ساكته بتحاول تقنعنا إن تصرف جوزها ماضياقهاش دينيا.
كنت متعود على لمة عيلة بريا برغم إختلاف إيمان كل واحد فيهم عن التاني، بس كلنا كنا بنقعد في تناغم ومحبة حوالين أكل يليق بتجمع سنوي للعائلات، معمول بحب وممزوج بكل الاعراق والأديان وإختلاف الحضور.
بحب الكريسماس مع عيلة بريا.

على العكس كان بيت أمي، مكان فخم بارد ميت، مافيهوش إيمان ولا ثقافة. فضلت أمي تشرب وتشرب لحد ما وشها الصناعي إحمر وبقا زي المحروق. جيريمي ساب الاكل وفضل يحاول يملا الفراغ بالكلام. جيف كان بيشرب سيجارة ورا التانية، قلت له:
- ماينفعش تدخن هنا.
قال لي:
-عارف إنك سيدنا وتاج راسنا وأحسن مننا كلنا..بس ده معلش مش بيتك ولا هاتقول لنا نعمل إيه ومانعملش إيه فيه.
- مش فاهم قصدك..أنا مش أحسن من اي حد، كل الموضوع إني مش عايز بريا تتعرض لدخان السجاير.
لقطت بريا مني الخيط وقالت ووشها محمر:
- أعتقد إن ده الوقت المناسب إننا نعلن إني حامل..هاتبقي تيتة يا آن!
فجأة ضحكت أمي، وقلب الضحك عياط..سألتني بعده:
- هو..هاينفع أشوف حفيدي؟!
قال جيريمي:
- ماما بلاش كده، الرجل جاي يقولك ونيته خير.
- خير مين؟ أنا ماشوفتوش من أربع سنين وماسمعتش صوته من يوم فرحه، والنهاردة جاي يقول لي هايخلف، المفروض أعمل إيه؟ أفرح؟
بريا فاجئتني، ممكن تبقا رقيقة ولطيفة زي اللافندر، بس فجأة قلبت، وبصت لأمي في حدة ماشوفتهاش عليها من سنين وقالت:
- إنت مش حاسة بنفسك؟ مش حاسة بقسوتك الي بعدته عنك؟ كتر خيرنا إننا جينا وقولنا نرجع العلاقات علشان إبننا، بس إنت هاتندمينا..نسيتي يوم فرحنا؟!
- لمي نفسك، مش غلطتي..أنا قلت الحقيقة بس!
صرخ جيريمي:
- يا جدعان كفاية، ماينفعش نقعد زي خلق الله في هدوء؟!
بريا وأمي تجاهلوا جيريمي تماما.
- حقيقة إيه؟ إنت كان عندك إبن زي الفل كنت بتستغليه عاطفيا طول عمري وتسقطي عليه كل أمراضك النفسية وكل الي سمحتي لأبوه يعمله فيكي. أنا آسفة لكون جوزك رجل خاين وواطي، بس كان لازم تقفي وقفة تحمي بيها

نفسك وولادك. مكانش لازم تشيلي إيريك شيلتك. أنا بحب إبنك وما أجرمتش علشان بحبه.
- إيريك كان إبني أنا! كان كل اللي ليا، كان هو الي بياخد باله مني وإنت سرقتيه يا فاجرة! خطفيته وكان لسه صغير مش فاهم حاجة.
قمت في هدوء، قضيت سنين محبوس جوه أم هيسترية وحركاتها دي مابقتش بتأثر فيا. إختياري كان إني اتحاشاها، وكان إختيار صحيح.. كانت مجرد دمية ملونة ملفوفة في فلوس أبويا ومافيش حد حواليها ولا قادر يتحملها.
مديت إيدي وسلمت على جيريمي وقلت له:
- شكرا على حسن نيتك، كنت هابقا سعيد لو كانت الأمور مشيت زي ما كنا عايزين. هابقا أتصل بك.
ولولت أمي وقالت:
- آديك هاتهرب تاني..كل مرة تصعب عليك حاجة تهرب منها. إنت مش راجل، إنت عيل صغير مذعور.
بصيت لها وقولت في هدوء:
- سلام..
أخدت بريا في إيدي وخرجنا ركبنا العربية. فضلت تتطبطب عليا طول الطريق.
- حبيبي معلش، بس كان لازم نحاول.
- يمكن..بس أنا ضيعت عمر في محاولات إرضائها، ومش هاكررها تاني. أعتقد إني محتاج علاج نفسي بعد الي شوفته مع العيلة دي.
- نفسي أو روحاني..
- روحاني؟
- أعتقد إننا المفروض نروح لخبير روحاني.
- لا معلش كفاية المجانين الي في الشغل.
- بتكلم جد..من ساعة موضوع الزفتة كاسي دي وانا بشوف أحلام مرعبة..أعتقد إنها عملت لنا حاجة..لازم تيجي معايا، أكيد سحرتلي!
ماكانش ينفع أرفض لها طلب، تاني يوم روحنا لمعالجة روحانية أو مستبصرة حسب ما قالت لها صاحبتها.

***

المستبصرة مكانتش زي ما تخيلتها..
بيتها كان عبارة عن دورين بالطوب الأحمر حواليه جنينة جميلة وفيها مراجيح. في الحديقة الخلفية كان في مجموعة سيدات وأطفال بيستمتعوا بالقعدة الظريفة.
واحدة من السيدات دي، كان شعرها أحمر وطويلة، التفتت لنا أول ما جينا، ومدت إيدها سلمت على بريا وقالت:
- أهلا، انا سيبل، ودول أخواتي وولادنا. تشربوا حاجة؟
ردت بريا:
- ميه بس..
دخلت سيبل البيت وسابتنا قاعدين مع أخواتها. بريا فورا لضمت مع الستات وفضلوا يتكلموا عن الأطفال والحضانات وإندمجت أوي حتى إنها ما حستش بعودة سيبل الي طلبت مننا ننتقل لأوضة خاصة.
الأوضة كانت مشمسة جدا، مكانش فيها إلا ترابيزة وكراسي من طراز فيكتوري فخم. قعدت سيبل وقعدتنا جنبها، مانورتش شمع ولا أي حاجة من الي كنت متخيله.
من بعيد كنا سامعين صوت الرياح وضحكات الأطفال.
غضمت سيبل عينيها ومسك إيدي ورمت 7 أحجار على الترابيزة. فضلت تبص للأحجار فترة طويلة بعدها قالت:
- الحقيقة الي هاقولهالك ممكن ماتكونش الحقيقة الي إنت عايز تسمعها. طريق كله فروع وإحتمالات، وكل طريق وله نهايته. بس هاقولك اللي اعرفه..الحجر ده إسمه كانو، بيعني إنك فتحت على نفسك باب لشيء مختلف، وسمحت لنفسك تستقبله.
الحجر ده هو إهفاز، مستقبلك، حجر الإنتقال وبيدل على تغييرات عظيمة، الحجر ده ثورياز، بوابة الشيطان، البوابة الي بين الجنة والجحيم..الشيطان نفسه بيقف عند البوابة دي وإنت واقف قدامه دلوقتي. الحجر ده، إنجوز، حجر الخصوبة. في حياة جديدة جواك، إنت بتتجدد وبتتغير ومراتك حامل في توأم. الحياة محاوطاك والأمل في كل مكان. الحجر ده هو حجر التحدي، تيفاز، حجر المحارب الروحاني، ومعركة المحارب الحقيقية هي الي بينه وبين نفسه، لكنك لازم تحارب حاجات تانية. شايفة في ظلام قدامك، ومعركتك مع نفسك ومعاه..دول حجرين المستقبل...

غمضت سيبل عينيها تاني وقالت:
- في حاجات حلوة وحاجات وحشة، وفي احداث بره قدرتك على التحكم..في عاصفة هاتجيب معاها ألم ومعاناه..العالم هاينهار من حواليك، كل حاجة هاتلمسها هاتتعفن، وكل أرض هاتخطي عليها هاتتلعن.
فتحت سيبل عينيها وبصت لي، نظرتها البريئة القديمة زالت، وبدلها كانت نظراتها كلها غضب وإشمئزاز:
- إنت عملت إيه؟!!
- مش فاهم، في إيه؟!
- طبعا مش فاهم!
مالت سيبل على بريا ومسكت إيدها وقالت لنا:
- في حاجة عايزاكم تفهموها، اغلب الناس بتعتقد إن الأماكن بتتلعن بسبب أحداث سيئة حصلت فيها، بيعتقدوا أن الأشباح بتسكن الأماكن دي، لكن مش دي الحقيقة. في أماكن فاسدة وملعونة، وبيحصل فيها أحداث مروعة بسبب فسادها. الشر بيسري تحت الأرض والي بيزع في الأرض دي بيحصد حزن. الأشباح ما بتتولدش، والموتى ما بيتحركوش..الأشباح هي ظلال العالم الآخر، مسوخ بدون وشوش. العالم مليان حاجات مابنقدرش نشوفها بعينينا، والي ورا الحاجز هايفضل مجهول..بس ساعات بيتسرب لعالمنا بعض منه، الأماكن الي فيها القطع في الحاجز هي دي الأأماكن المسكون فعلا، والي بييجي من القطع ده بيبقا عايز البشر ومهما ياخدوا منهم ما بيشبعوش..وشيء من دول وصل لك يا إيريك...
هزيت رأسي في رفض وقلت لها وأنا مش مصدق:
- إنتم كلكم بتكرهوني، آخر واحدة قرأت لي الطالع قالت لي إني هاموت صغير!
ضحكت، بريا كانت بتبص لي في ذعر، كانت مصدقة كل كلمة قالتها الست دي.
شاورت سيبل لآخر حجر قدامها وقالت:
- ده حجر أودين، حجر المجهول. المجهول هو البداية والمجهول هو النهاية.. الموت هو المجهول. إنت فتحت باب، وعارفة إنك ما فتحتوش متعمد، لكن الباب ده مبيتقفلش..مصيرك إتحدد خلاص.

التفتت سيبل بعيد عني وحطت إيدها على بطن بريا وقالت:
- ماتقلقيش..العالم مليان أشياء مابنقدرش نشوفها، إنت وأولادك هاتلاقوا السلام في النهاية مع بعض. لازم تواجهي الي جوزك حرره، ده العبء المكتوب على أي ست. بس ماتخافيش إنت في أمان..
بريا كانت بتعيط، لكنها أشرقت مع كلام سيبل وابتسمت، حضنتها وكملت بكاء على كتفها. ضحكت وسألت في توتر:
- وأنا؟ أنا في أمان؟
مرت سحابة حجبت الشمس وضلمت الأوضة، النسيم توقف وساد الصمت.
قالت سيبل في صوت زي الفحيح:
- لا..إنت ملعون..إنت ملك سيرسي إنت والست الي إنت مربوط بها.
- الكلام ده مايدخلش ذمتي. نيجي المسافة دي كلها علشان ترعبيني أنا ومراتي..في إيه يا جماعة مالكم؟ ماتقولوا حاجة كويسة يا تسكتوا.
مدت سيبل إيدها لي في برود وقالت:
- خمسين دولار.
إديتها فلوسها وجريت بريا بره البيت، وسوقت بأسرع ما يمكن. كنت غاضب، تعبت من الستات الي بتدعي إنهم مستبصرات وساحرات . أنا حاوطت نفسي طول عمري بناس متعلمة عقلانية فاهمة الحقيقة من الخيال، وبرفض حد يقدملي الجنون متنكر في شكل علم زائف.
مايهمنيش الأحجار قالت إيه، كل ده كلام فاضي. مش مصدق إزاي طاوعت بريا على قلة القيمة دي.
سألتني بريا وإحنا في الطريق وهي لسه بتعيط:
- إيه الي حصل بينك وبين كاسي بالضبط؟ أنا عارفة إنك نمت معاها، بس عملت إيه تاني؟! إنت قولت إنها قالت كلام وتعاويذ في البدروم، قالت إيه؟
- بيريا، كفاية..أنا مديونلك وأسير غفرانك لي، بس مش هالعب اللعبة دي تاني..مش هاروح لمخابيل يكلموني تاني عن العفاريت والشياطين واللعنات. عندي مجنون معتقد ان الشيطان هو الي خلاه يقتل عيلته، أروح أقعد معاه وآخد رأيه هو كمان؟!
- أرجوك، أنا خايفة أوي..طاوعني.
- خايفة ليه؟ علشان واحد بتقرا البخت؟ دي ست مجنونة.

- علشان العفريت بيلاحقني، عارفة إنك هاتقول عليا مجنونة، بس اقسم لك الشبح ده حقيقي..مش قادرة أنام..بصحى الاقي خنافس مالية شعري وبشم ريحه المخلوقة دي في سريري! أرجوك!
- نعم؟؟؟
- مش عارفة، بس هي مش...مش عارفة..المخلوقة دي مسخ، بحلم بالمسخ ده كل يوم بيحاول يقتل أولادنا. ماكونتش راضية احكيلك من زمان علشان مش هاتصدقني. طول الوقت إنت بعيد، موجود ومش موجود. صحيح الي بقوله غريب بس كلام سيبل أكد إحساسي إن كل ده حقيقي والشيء ده عايزك وعايزني. هي عرفته من غير ما أحكيلها حاجة، مخلوق قديم من تحت الأرض بيطاردنا. قل لي أرجوك إنت عملت إيه مع كاسي؟
- بريا، حبيبتي، سيبل بتخرف. انا مش قادر استعيد تاني الي حصل بيني وبين كاسي، كل مرة بحاول أفتكر عقلي بيمنعني. كاسي وقتها كانت مش بني آدمه. سامحيني، انا ما استحقيكيش، ومهما عملت مابطلتش لحظة إني أحبك. كاسي أخدتني تحت المبنى القديم في المستشفى، مش هاعرف أوصفلك المكان بس تحسيه زي الدهاليز، زي المتاهة. كنت ماشي وراها وماقدرتش أرجع اما شكيت فيها لأن مكانش معايا كشاف. مش هكدب عليكي كنت شايفها جذابة وهي واقفة قدام المذبح في البدروم بتخلع هدومها وبتنشد. ضربتها بس معرفش إيه الي حصل لي بعدها..هددتني إن ما أستمرت معاها إنها هاتقولك على كل علاقاتي السابقة الي معرفش عرفتها منين. الست دي مش كويسة ومش محترفة كطبيبة وبتستغل مرضاها.الست دي هي كل شيء بكرهه في الدنيا.
بريا كانت بتسمعني وهي بصالي بعينها السود الواسعة، الشمس كانت بتغرب ومابقتش شايف تفاصيلها كويس، بس شايف إنها حاطة إيديها على بطنها. قلت لها:
- بريا..هاكون متفهم تماما لو قررتي الإنفصال، انا ما استاهلكيش. الي عملته مع كاسي لا يغتفر..عارف.
- الي حصل حصل..للأسف بحبك، بحبك من قبل ما تاخد بالك مني أصلا. غريبة إنك طول الوقت بتقول للناس إني ماكونتش عايزاك وإنك أغوتني علشان أحبك. الحقيقة إني كنت بحبك من أول يوم شوفتك فيه في الجامعة.أنا الي خليتك ملكي، ومهما كترت الستات الي بتحاول تاخد مني كنت بترجع لي. مش هاقدر أسيبك، إنت الرجل الوحيد الي عايزاه.

***

الليالي بقت أبرد، وده شيء مش معتاد في موبيل.
الأسبوع ده لقينا بيت مناسب، كنا بندور برغم البرد، كنا بنحارب الوقت.
رجعت الشغل، والصراحة الشغل مع دكتور دونالد وفريقه ممتع جدا، مكانش في شغل بيروقراطي كتير والأهم إني كنت بكشف على المرضى وبقيم حالاتهم وبتعلم أكتر وبساعد أكتر.
إداني دكتور دونالد أجازة يوم علشان اروح مع بريا لطبيب النساء، ماكونتش طلبت منه أجازة بس الرجل كان متفهم جدا وواخد باله من الحياة الخاصة للمتدربين وبيراعيها وبيتكلم دايما عن عيلته وأحفاده.
رحنا أنا وبريا علشان تعمل أول موجات صوتية لها، وكنا مش عارفين هانسأل عن جنس المولود ولا نخليها مفاجأة.
فضلت ماسك إيد بريا والدكتور بيحرك الجهازعلى بطنها وعينينا على الشاشة. أنا دكتور بس ماكونتش فاهم حاجة في الي شايفه ده.
شاورت الممرضة على حاجة في الشاشة وقالت:
- الله! هو دكتورك ماقالكيش إنه سمع صوت قلبين ولا إيه؟
- لا ماقالش!
- مبروك، إنت حامل في توأم!
سألت بريا وصوتها خايف، عارف إنها بتفكر في كلام المستبصرة:
- فعلا؟
- بصي، في راسين أهم..بصي بصي..دول بنت وولد!
قلت في سعادة مفتعلة:
- شوفتي، آدينا إحنا الإتنين جالنا الي نفسنا فيه.
- سيبل كانت صح..
- وقالت كمان إنت وإنت والأولاد هاتكونوا في سلام..ماتزعليش بقا.
بعد ما رجعنا البيت بريا مكانتش هي بريا. جالها نوبة قيء بعدها قعدت تتفرج على التليفزيون وهي ساكتة خالص..كأنها ضايعة. قعدت جنبها طول الوقت ودلكت رجليها، ورفضت تاكل اي حاجة.
- بريا، ماتخليش كلامها يعمل فيكي كده. اصلا القراءات دي بيكون لها كذا تفسير.
- عارفة.

- وبعدين هي قالت كلام حلو عنك وعن الأولاد، قالت لك ماتخافيش.
- بس أنا مش عايزة افقدك.
- مش هاتفقديني ولا حاجة.
- اوعدني إنك مش هاتسيبني.
- أوعدك.
أخدت أجازة أربع أيام تانية وفضلت معاها مابروحش في أي حتة من غيرها.
مضينا عقد البيت الجديد والي كان مطل على بحيرة.
أبو بريا إدانا فلوس المقدم، وبدأنا في تجهيز البيت. كان في اوضة كبيرة تنفع أوضة للأطفال وبريا أما شافتها ابتسمت لأول مرة ونسيت كلام سيبل وبدأت تجهز في التفاصيل والديكورات.
أخدت بريا أجازة من شغلها، وكان فاضل شهرين على ميعاد إستلام البيت بعد التجهيزات. روحت لعيادة والدي القديمة وقعدت مع شركاؤه، رحبوا بيا جدا ومكتب والدي كان زي ماهو وتحت أمري..أما دخلته حسيت بالفراغ الي سابه برحيله لأول مرة.
أما رجعت الشغل شكرت دكتور دونالد على تفهمه، والرجل كان بيسيبني أرجع البيت بدري كمان.
خلصت شغلي وروحت أستنى جون وآندي عند عربية الأخيرة. وشوفتها تاني...
ما ابتسمتش لها..جين..
كانت واقفة على السلم ونزلت وقربت مني أول ما لمحتني..كانت مبتسمة وسعيدة كعادتها غير المفهومة.
- روي مفتقدك.
- روي فاكر إنك شبح.
- انا مش شبح.
- إنت مين؟
- أنا جين..أنا كاسندرا..أنا دكتور بوسارج، أنا إنت..أنا سيرسي..
جاوبت وإختفت في الضباب وسابتني بردان ومحتار. أما وصل جون وآندي اقنعت نفسي إن عيني غفلت ثواني وحلمت.
سألتني آندي في زهق:
- إنت كنت بتتعامل معاها إزاي دي؟!
- بصراحة، كانت هاتخرب بيتي.

- لازم يسحبوا ترخيص ممارسة المهنة منها، دي مش دكتورة، دي مشعوذة برخصة!
قال جون:
- أنا مش فاهم درست إيه وفين، ولا حتى بنشوفها علشان نعرف نفهمها. كل الي بيننا ملحوظات مكتوبة ونقد وعلامات على التقارير بالأحمر كأننا في المدرسة.
ردت آندي:
- لا مش قصدي على كده، في حاجة كبيرة غلط في الست دي،عارفين إن عندها كتب سحر في المكتب؟ سمعتوها وهي بتتكلم؟ دي مجنونة أكتر من المرضى الي في المستشفى. عندها سجل جامعة فيه كل قصص التعذيب الي حصلت هنا!
قال جون:
- الي مش فاهمة ليه دكتورة بابكوك محتفظة بيها لحد دلوقتي؟
جاوبت:
- اعتقد إن كاسي عندها كاريزما معينة بتخلي الناس تنصاع لها، كمان بتقدم شغل المتدربين عندها على إنه شغلها فتبان دكتورة خارقة.
سألت آندي مستنكرة:
- أمال إيه شغلتها بقا؟ بتودي وقتها فين؟ مش ماسكة أي جلسات علاج جماعية ولا معاها أي مرضى بتتابعهم.
- كانت بتقول لي إنها شغالة في التالت.
قال جون:
- مش حقيقي..انا شغال في حالة روي في التالت وعمري ما شوفتها هناك. يبقا بتروح فين؟!
قالت آندي:
- أكيد بتقعد تمخمخ في طرق تطلع بيها عينينا.
- بصوا يا جماعة، تجاهلوها..كلها كم شهر يعدوا بالطول ولا بالعرض ونخلع من هنا. فرحك إمتى يا جون؟ الدعوة ضاعت مننا. آه صحيح بريا حامل في توأم!
غيرت الموضوع، وسيبتهم متحمسين بيتكلموا طول الطريق عن الأفراح والسبوع وغبت أنا في أفكاري.
***

تاني يوم عزمنا جون وخطيبته وآندي على العشا، قضينا ليلة حلوة جدا وبريا إنبسطت.
نمت من كتر ما شربت، وصحيت على الساعة تلاتة متلج. كل شبابيك الأوضة كانت مفتوحة، قمت قفلتها وروحت أدور على بريا.
دماغي كانت بتدق من الصداع وعينيا مزغللة من كتر الشرب. لقيت بريا قاعدة في الصالة حاضنة رُكبها، والكلب قاعد جنبها على الأرض. كانت باصة قدامها للاشيء وفي بقعة دم تحت رجليها.
- بريا! إيه الي حصل؟
شديتها ودورت على مصدر الدم مالاقيتش، رفعت هدومها ولقيت بطنها متغطية بحاجة زي خربشات ضوافر القطط.
- بريا إيه ده؟!
بصت لي في شرود:
- كنت فاكرة إني لسه نايمة..آسفة.
- إيه الي حصل لبطنك؟
بصت ببطء لبطنها ومشت غيدها على الجروح المفتوحة وقالت:
- كنت فاكرة إني بحلم.. شيء..مخلوق قد القطة لقيته في السرير. إتخضيت ورميته بعيد، مكاونتش عارفة عبارة عن إيه..غالبا كنت نايمة بس هو أكيد قطة يعني..أكيد..ماينفعش يكون زي ما شوفته..كان عصبي أوي..
أخدتها الحمام ونضفت الخدوش بعناية ولزقت عليهم بلاستر. كانت بريا لسه بتقول في شرود:
- غالبا قطة ضالة دخلت من الشباك..انا فتحت الشباك عشان الجو كان حر وهي دخلت..
هزيت راسي، لولا إن آثار المخالب صغيرة كنت شكيت إن بريا تحت تأثير التوتر عملت كده في نفسها وهي نايمة. ذكرى لرؤية قديمة رجعت لي تاني ورعبتني.. الكائن الي محكيتش عنه لبريا، الي كان واقف في المطبخ وسيرسي كانت واقفة في الركن بحشراتها.
الذكرى كانت عنيفة ورعبتني. طمنت مراتي بكل الاكاذيب الممكنة، قلت لها إني لمحت قطة ضالة فعلا إمبارح في الجنينة، وان كان في نص سندوتش على الكومود جنب بريا وأكيد ده الي خلا القطة تدخل علشان تاكله.

صدقتني بريا لأنها كانت محتاجة تصدقني، وصدقت نفسي لأن كنت محتاج أي تفسير يمنعني من الجنون.

***

المستشفى، سيرسي، بقت مكان بارد جدا بالنسبة لي. كل الطرقات بقت أطول والمبنى القديم المرعب كان بيطل عليا من شباك مكتبي زي الشبح، زي الي بيحكم عليا بذنوبي.
برغم تحسن أحوالي في الشغل، ودماثة خلق دكتور دونالد، إلا إن الظلام كان بيخيم عليا. هلاوس غريبة بتطاردني، حاجات بتتسلل من الشبابيك، الحوائط بتهمس، مرضى ما أعرفهومش خالص بينادوني بإسمي.
حاولت أتجاهل كل ده وابعده عن نقطة تركيزي، بس كانت الهلاوس بترجع في لحظات حرجة جدا. كنت ببقا بتكلم مع مريض والاقي سيرسي واقفة في الركن بتغرقه بحشراتها. القط الشيطاني الي عور بريا كان بينسل من بين رجليا من وقت للتاني وينط من الشباك. سيرسي بتفضل تهمس لي إن العاصفة جاية..بمسك راسي بإيديا وبعض على أسناني..العاصفة جاية..سيرسي بقت مكان مسكون بيدفعني للجنون.
ودايما جين كانت بتلاحقني. بتقعد جنبي وأنا بتغدى وتكلمني عن روي. أول مابكون لوحد بلاقيها قدامي بتحكي لي عن سيرسي، عن نفسها. قالت لي إنها كانت ساحرة واستخدمت السحر لإغواء طبيب زمان. ضحكت وهي بتقول لي إنها قتلت خمس مرضى، ورسمت على الأرض بدمهم، بس محدش أهتم ولا حد أخد باله.
مهما حاولت أنا وبريا إننا نقنع نفسنا إن كل شيء تمام كنا بنفشل. كنا طول الوقت بنمثل على نفسنا وعلى الي حوالينا. كتير حسوا إننا متغيرين بس مكانش عندنا تفسير نقوله لهم.
يوم ورا التاني كنت بلاقي بريا بتقضي أغلب ليلها في الصالة مع الكلب، وبتتكلم عن قط مخوفها ترجع تنام تاني في سريرها. أخيرا قررنا ننام على الأرض في الصالة، لكن أحلامنا كانت بتصحينا من احلى نومة. واخيرا بنستسلم ونشغل التليفزيون ونتفرج على أي كلام فاضي ينسينا.
مهما كان الوضع صعب في البيت، فالشغل كان أسوأ.

كنت بفقد تقارير كتير بسبب إن الكهربا كانت بتروح وتيجي كل شوية في مكتبي وبسببها بتتمسح التقارير من على الكومبيوتر. الأصوات الي بسمعها إتحولت من همسات لصرخات، وساعات كنت بضبط نفسي برد عليها، بترجاهم يسكتوا شوية، بس مافيش فايدة.
جين كانت بتقعد معايا، تحط راسها على كتفي. بتجاهلها وبقول إنها هلاوس. كانت بتهمس بأسرار في ودني، قالت لي إن المبنى إتحرق زمان أيام ما كان قلعة، حرقه واحد من السحرة من قبائل الكومانشي ،كان بيقول إن المكان ده دَنِس. للأسف الريح هبت وأخمدت النار، والساحر أتعدم.
قالت:
- أنا الصوت النابع من روح، أنا الصوت المالك لأرواحكم كلكم..أنا لا أُحصى، أنا سيرسي!
جين..جين..حكاياتها كانت ماتتعدش، أكتر بكتير من الي قالته كاسي. كانت بتحكي عن أطفال قتلى، وحوامل مغتصبات..
حكت لي عن روي، وقد إيه كانت مشتاقة للإستحواذ عليه..هو الي رجعها لحبيبها، رجعها لكال..قالت إنها إستنت اللحظة دي كتير .
قالت:
- أنا بحب المكان ده..بحب الشمس..مش هامشي من هنا أبدا، ده بيتي..مش هارجع تاني.
سألتها:
- ترجعي لفين؟
- لازم تيجي معانا،هاتعيش للأبد هنا، عيش معانا للأبد تحت الشمس.
كل ما كنت بطول في القعدة مع جين، كل ما نوبات هلاوسي بتبقا أسوأ. ببقا غرقان في الحشرات وأنا بتكلم مع مرضاي، بشوف سيرسي في الظلال، مكانش في أي حاجة أعملها توقف الهلاوس ..ومش قادر اعترف لنفسي إني خلاص فقدت عقلي.
أسوأ نوبة جتلي وأنا في جلسة علاج جماعي مع دكتور دونالد ومجموعة أطباء تانيين. دكتور دونالد كان بيشرح حالة معقدة أما شوفت القط الشيطاني نط من الشباك من ورا واحد من المرضى، وابتسم لي! حاولت أبعد الهلاوس واغمض عينيا لكن الكائن كان لسه بيقرب لي وبيغرس ضوافره الصغيرة في خشب الترابيزة الي قدامي، وبيفح زي التعابين.

إتشليت في مكاني، ماكونتش عايز أتفضح في المكان ومش قادر اتخلص من الذعر الي حاسس بيه.
قلبي كان بيدق في حنجرتي، كل حواسي توقفت وانا شايف الكائن بيقرب مني ببطء وثقة. تراجعت بالكرسي لورا، صرختي محبوسة وانا عمال أقول لنفسي: ماتصرخش! ماتصرخش!
لو صرخت الكل هايعرف إني مجنون زي روي، لكن الكائن كان بيقرب وحسيت عينيا بتدمع. سمعت دكتور دونالد بيقول:
- دكتور بلاك؟ دكتور بلاك؟؟
نقلت عينيا عن الكائن لوش دكتور دونالد وقلت:
- آسف.
- إنت كويس؟!
- أيوه كويس، بس مانمتش كويس أمبارح بس.
الشيء كان حرفيا على حجري. حاسس بلعابه على رجليا. هزيت راسي تاني وصرخت في سري: حد يلحقني! صرخت: ارجوك كفاية!
فضل المخلوق قاعد على حجري، الحوائط كانت بتأن، عينيا بتزغلل من صوتها، أنا إتجننت!
- دكتور بلاك، حابب تضيف اي رأي لملف حالة السيد سميث؟
مكونتش قادر افكر، قلت:
- آسف..محتاج أستأذن، اعتقد إن جالي برد.
قومت ووقعت الكرسي ووورايا، خبطت في دكتور دونالد..لازم ابعد من هنا، لازم.
جريت من الأوضة روحت الحمام، غسلت وشي يمكن افوق. لقيت دكتور دونالد داخل ورايا وهو قلقان وبيقول:
- إيرك؟ إنت كويس؟
بصيت لعينيه الطيبة الدافية وهزيت راسي، مكانش عندي كلام يتقال. غمضت عينيا وبدات أعد من عشرة لواحد يمكن أهدا.إتنفست ببطء، بدأت دقات قلبي تتضبط. هديت نفسي علشان أعرف أرد عليه.
- آسف جدا...أنا خيبت أمل الفريق كله فيا..أنا مش مضبوط والدنيا ملخبطة جدا معايا..أنا تعبان..
- طيب ليه ما أخدتش أجازة مرضي؟

- أنا أخدت أجازات كتير أوي، ولسه هاحتاج أجازات تاني علشان ولادة بريا. حامل في توأم وتعبانة فمش عايز أستهبل وآخد أجازات مالهاش لازمة دلوقتي.
- شكلك مش تمام يا إبني. خليني اكون صريح معاك، أنا شوفت مرضى إنتحروا كانت حالتهم أحسن منك كتير. تحب تتكلم معايا شوية؟
- أنا..أعتقد إني بفقد عقلي...
- ممكن تشرح أكتر؟
- عندي هلاوس مرعبة، مش قادر أبعدهم عن دماغي. شكلي هافضل هنا على طول بس كمريض مش دكتور.
- ماتقولش كده..ممكن تكون بتعاني من بعض المتاعب أو الضغوط الشديدة. هاكلم بوب ونشوفلك أدوية تساعدك شوية، بعدها تروح بيتك ترتاح. إنت مش هاتفيد حد هنا بحالتك دي.
أخدني دكتور دونالد لمكتبي وجابلي كوباية مية وفتحلي الشباك وسابني أهدا شوية لوحدي. جابلي بعدها علبتين دوا أخدت قرص من كل واحد بسرعة.
أكيد أنا بتجنن..أكيد..
كنت عايز أعيط، بس مكانش عندي أي دموع. فضلت قاعد مكاني أبص على المبنى القديم من الشباك.

***

اما رجعت البيت بريا مكانتش موجودة، دخلت نمت ماحسيتش بالدنيا إلا بليل.
قومت لقيت بريا بره قاعدة مع أختها راشيل والكلب قاعد عند رجليها. ابتسمت لي راشيل أما دخلت عليهم، لكن بريا كانت بتعيط.
رجعت سريري تاني، هاعمل إيه؟ بريا حواليها عيلتها ساندينها، بس أنا لوحدي تماما، وتعبان.

***

الأيام بتعدي، والهلاوس مستمرة..الوقت كان بطيء جدا ولزج، كنت بحاول أتصل ببريا في شغلها كذا مرة بس كل مرة يزعقولي ويقولولي مشغولة.
في يوم كنت خلصت شغل بدري فنزلت أتمشى شوية، ورجليا أخدتني عند المبنى القديم الي كان الطاووس قعد على سوره ونافش ريشه.
إتخضيت اما حسيت بإيد السيد سيمث على كتفي. في الأول ماعرفتوش، بعد ما ركزت افتكرت إنه مريض عند دكتور دونالد، فابتسمت له.
- محتاج حاجة يا سيد سميث؟ آسف إني خرجت من جلستك كنت تعبان.
- لا ماكونتش تعبان، إنت شوفته.
السيد سيمث كان بيعاني من متلازمة كورساكوف وإضطراب ثنائي القطب، وكان بيميل للعصبية والإصابة بنوبات عنيفة بيكسر فيها أي حاجة قدامه.
سألته:
- شوفت إيه؟
- القط..قط سيرسي..أنا شوفت إنك شوفته.
- ...آسف؟
- دكتور بلاك..دكتور بلاك..إنت بتمثل علينا بس إحنا عارفين إنك شوفته.

استسلمت، ايا كانت القوى المظلمة المستحوذة على المكان، فالكل أجمع على وجودها.كفاية مراوغة. قلت له:
- ماتقلقش، إنت بتتحسن وهاتخرج من هنا قريب جدا، لقينا لك مجموعة علاجية من البيت.
- مش مهم، كلنا بنسمعها بليل بتقول نفس العبارة..العاصفة جاية..ومافيش مكان نقدر نستخبى فيه من العاصفة.
- ماتقلقش هاتكون في امان.
- بس إنت لا.
- عارف.
بعدت عن الرجل ومشيت جنب مبنى سيرسي القديم، بلمس الحيطان واحاول افهم هي عايزة مني إيه..حسيت إني ممكن اشوف أشباح كل الي ماتوا هنا، كل الهنود الحمر الي إتدبحوا والسود الي إستعبدوا..بس كل الي حسيت بيه كان مجرد طلاء جاف مقشر.

سندت راسي على الحيطة وهمست للكيان القديم الي ساكن المكان، كلمته بكل الاسماء الي اعرفها عنه وطلبت منه يغفر لي كل الذنوب الي اقترفتها في حق ربنا وحق الناس. ماجاوبش عليا إلا الريح..
الحيطة إتفتحت قدامي وطلع منه ديدان ولوامس سودا بشعة..سيرسي مابقتش بتستخبى في الظلال ولا بتظهر في الأحلام خلاص..
جسمها كان متغطي بالحشرات، وفي رحمها مئات الأرواح المعذبة الي ماتت في سيرسي..
قالت لي:
- إيريك..إنضم لنا..
جريت ناحية موقف العربيات، آندي وجون كانوا واقفين جنب عربية جون مستنييني. جريت عليهم وركبت العربية بسرعة بدون ولا كلمة. إما إني مجنون رسمي وإما إن في كيان شيطاني مستعبدني..مالهاش حل تاني.
الإحتمالين بشعين..
ماينفعش أكون نيكّا الي بيدور تحت سريره عن الشياطين الي عايزة تسرق فلوسه..
ركبت آندي العربية وسألتني:
- مالك بتجري من إيه؟!
- معرفش..معرفش..
كنت بترعش وبتهز..سألني جون:
- في إيه؟!
- أنا إتجننت.
سألتني آندي في قلق:
- إزاي؟!
إتفتحت في الكلام، في التفاصيل والدم والموت وكل حاجة كان مستحيل أحكيها للإتنين دول بالذات من ست شهور. من وقت للتاني كانت آندي بتشهق في ذعر، وجون كان بيكشر أو يغمض عينيه..
حكيت عن كل حاجة بما فيها القط..كنت عارف إن حكمهم عليا مش هايخرج عن كوني مجنون أو ملبوس.

نزلت آندي من كرسيها وقعدت جنبي على الكنبة الخلفية وحضنتني. همست لي:
- إنت مش مجنون لا..جون، احكيله اللي حكيتهولي. أنا ماصدقتش جون أما حكالي هو كمان من أسبوعين، بس كنت بسمع حكايات تفاصيلها واحدة من المرضى..نفس الحكاية! ايه الصدفة الي ممكن تكون جمعت كل دول على قصة واحدة؟!
قال جون:
- من إسبوعين، إكتشفت إني بطيء شوية في التحصيل وماكونتش ملاحق أعمل الشغل الورقي الي كاسي بتطلبه مني. قولت أتأخر شوية علشان الحق نفسي، قعدت يومها لحد يمكن عشرة بليل ومكانش في أي دكاترة غيري، التمريض بس. قولت أطلع أبص على روي كمان لأن كان تعبان الفترة الي فاتت. كنا بنديه كمية أدوية كبيرة علشان كان بيشتكي من هلاوس قوية جدا، بس للأسف الأادوية مكانتش مأثرة. المهم قولت أطلع أبص عليه مالاقيتهوش. ده طبعا مش معقول لأانه محبوس في الدور التالت وماينفعش يطلع براه أبدا..ده مجرم خطر المفروض. فجريت أدور عليه في كل حتة، ولقيته ماشي مع كاسي في الضلمة. إستخبيت ومشيت وراهم معرفش ليه. المفروض كنت أنادي الأمن، بس الي حصل بقا.. المهم مشيت وراهم لحد المبنى المهجور، نفس المكان الي وديتك له، مانزلوش بقا بدروم ولا حاجة، دخلوا خطوتين بس ولقيتها....فاهم طبعا..المهم بعد الي حصل لقيتها بتترجى روي يستدعي الشيطان الي بيدعي إنه خلاه يقتل أهله! سمعتها بتنادي كاسك ولا كال ولا إسمه إيه مش فاكر..ماكونتش عارف أعمل إيه. رجعت المكتب جري واتصلت بآندي في بيتها بس أعتقد إنها ماصدقتنيش. من ساعتها وأنا عمال اسأل المرضى واتحرى، ولقيت عدد كبير منهم بيقولوا إنهم ناموا معاها في المبنى القديم.بعضهم وصف لي البدروم وبعضهم قال إنهم عملوا كده بره. الأعجب بقا إن في مريضات زعموا إنها عورتهم وأخدت دمهم عملت بيه طقوس في نفس المكان. مش ممكن تكون كل دي هلاوس من مرضى معزولين عن بعض.
قلت في سخرية مريرة:
- الله! يعني نمت مع نفس الست الي نام معاها السيد السمين!

ضحكت آندي:
- السيد السمين ماقالش حاجة عنها ماتقلقش. بس كلهم كانوا عارفين الي بتعمله.
- أنا ضعت صح؟!
- الي مجنني إزاي المخبولة دي فضلت شغالة طول السنين الي فاتت في المستشفى؟!
قال جون:
- مش مهم، انا هانقل الكلام ده لدكتورة بابكوك بكرة، وكتبت تقرير مايخرش الميه عن سلوكها المهني. أيا كان الي بتهببه فخلاص هايخلص على إيدينا. خصوصا لو شهدت إنها نامت معاك.
قلت له:
- ماعادش في حاجة أخسرها خلاص..بريا عارفة، وانتم عارفين..ممكن تحكي لبابكوك عني بكرة بس مش هاقدر آجي معاك، مش هاقدر أحكي تاني.
فجأة ضربتني آندي على كتفي وقالت:
- وإنت يا جاموسة إنت إزاي تخون بريا!
- أنا كنت جاموسة فعلا من سنين..إنتم عارفين ده..الطريقة الي كنت بعاملكم بيها والي كنت شايف كل حاجة من خلالها..بس أنا إتغيرت دلوقتي، الي حصل رعبني.. ربنا عارف قد إيه كنت ضال ومش شايفه وشايف نفسي أعلى قوة في الكون..
فضلنا ساكتين طول الطريق، مكانش في حاجة تانية تتقال.
مشاعرنا كانت غريبة، حزن وخوف، غضب وخيبة أمل..
محدش فينا كان عايز يواجه كاسي، بس خلاص آندي وجون هايقابلوا بابكوك بكرة ومافيش مفر. كاسي هاتكدبنا وهاتقول ان المرضى بيهلوسوا، وغالبا المرضى هاينكروا شهادتهم خوفا منها. هاتكون معركة طويلة وخطيرة هاتعرض مستقبلنا للخطر.
***

حكيت لبريا عن يومي، وإني حكيت لآندي وجون، وقولت لها عن قرارنا.
أطرت على شجاعتي وإني كده الرجل الي دايما كانت شايفاه فيا.
للأسف كلامها ما طمنيش كتير، الظلام المخيم علينا والهلاوس الي بتخليني مش قادر اشوف أي أمل في بكره.

***

أخدت الدكتورة بابكوك تقرير جون وآندي عن كاسي بجدية شديدة. أستجوبتنا بما فينا كاسي. وقضت اليومين التاليين بتتجول في العنابر والأقسام كلها وتسمع من المرضى والعاملين كل الإشاعات والحكايات حتى لو مش معقولة.
برغم احترافية بابكوك إلا إن الأخبار إتسربت والعاملين بقوا بيتهامسوا عني وعن كاسي..كنت في عينيهم المتدرب الي نام مع امنا الغولة..كل الناس عرفت وقليل الي حاولوا يخبوا معرفتهم.
دكتور دونالد عاملني بلطف، كنت شايف الشفقة في عينيه. الأدوية ساعدت في قمع هلاوسي وبقيت بركز في شغلي أكتر وابعد عن الهمسات حواليا.
كنت مضطر احكي حكايتي عشرات المرات قدام مدير المستشفى ومدير شئون المتدربين وأي حد مختص، حتى إنهم خلوني أكتب تقرير بالكلام ده.
عقبال ما جت نهاية الإسبوع كنت أنا وآندي وجون تعبنا خلاص، لكني كنت مرتاح، لأول مرة في حياتي أعمل الصح.

الفصل السابع

الوقت كان بيعدي، بس ماكونتش حاسس بمروره. كنت بقعد بالساعات قدام شاشة الكومبيوتر المقفولة وأفضل مشوش وضايع.
حسيت بحضور سيرسي من قبل ما أشوفها، كانت جاية من ورايا، ما التفتش ..كنت جبان.
قالت سيرسي بصوتها الي زي الفحيح:
- هي ماتت خلاص..قتلناها الصبح ودمها ملاني..كانت لذيذة.
رفعت سماعة التليفون واتصلت ببريا في الشغل. طمنتني السكرتيرة إن مراتي بخير وشغالة مع مريض. قفلت السماعة وحاولت أتجاهل كلام سيرسي.
كملت شغلي وجه دكتور دونالد سحبني من المكتب ووداني اوضة الإجتماعات الي قابلنا فيها دكتورة بابكوك أول مرة جينا فيها هنا.
قعدنا مستنيين دكتورة بابكوك وجون، وماكونتش عارف الصراحة الإجتماع ده ليه.
أما وصلوا بعد عشر دقايق، قعدت بابكوك وقالت:
- الحقيقة مش عارفة أقول إيه..إنتم أشجع متدربين قابلتيهم في حياتي. كل مريتوا به مع دكتورة آلن خلاكم بشكل غريب أقويا وإتكلمتوا بدل ما تخافوا وتسكتوا...أنا فعلا معجبة بكم.
بصت لنا ولمحت إن عينيها مدمعة شوية، كملت:
- للأسف الشديد...مضطرة ابلغكم إن آندي أتوفقت النهاردة الصبح. البوليس بيحقق في وفاتها، بس الظاهر إنها انتحرت. .قطعت شراييها. أنا بلوم دكتورة آلن على كل الي حصل ده وصدقوني هاعمل كل الي اقدر عليها علشان ماتفلتش من العدالة.
ضحك جون وخبى وشه في إيديه، أنا كنت منمل..مش حاسس برجليا ولا وشي..
- هاديكم إسبوعين أجازة، أنا جبت من الجامعة بديل لكم، واعتقد اننا هانعيد هيكلة نظام التدريب بالكامل..دكتورة آلن هاتترفد، وممكن أصلا نفقد إعتماد برنامجنا التدريبي..بس ماتقلقوش شهادات تدريبكم هاتكون موجودة.

آسفة فعلا..آندي كانت شابة ممتازة، وجودها هنا كان فارق وانقذت حياة ناس كتير..عموما أهل آندي هايتواصلوا معاكم بخصوص ميعاد الجنازة.
قلت في هدوء:
- شكرا لك..
مسكت إيد جون وسكتنا..ماعادش في حاجة تتقال.
بعد شوية جمعنا حاجتنا ولقيت جون مستنيني على مقعد في الجنينة. كان ضايع تماما وسط الزحمة ووسط ذهوله.
- وقت ما تبقا مستعد وقادر يالا بينا.
- كاسندرا آلن...
- عملت إيه تاني؟!
- قلت لها إن آندي ماتت..ضحكت.
- ضحكت؟
- أها..قالت إن سيرسي بتاخد ممتلكاتها وقت ما تحب.
- دي مجنونة وخلاص مستقبلها هايتدمر.
- دي قتلت آندي! وهاتقتلنا وتقتل روي!
- ومال روي بالموضوع؟
- إحنا إتكدنا إن الي حصل للولد مش هلاوس واثبتنا ده بشهود بإثبات الجروح الي في جسمه والي مش ممكن يكون عملها لنفسه. الولد قال إنها هاتقتله ليه مش هانصدقه بقا؟! علشان مريض؟ وبعد الي حصل لآندي برضو مش هانصدقه؟ هو قال لي إنها هاتقتل آندي وتقتلني..طلب مني آخد مراتي وأهرب.
- روي..روي بيبالغ!
كنت بحاول أخلي المنطق يرجع تاني، مش هاينفع نتعايش مع هدم جدار الواقع كده، لكن جزء مني كان بيصرخ فيه(إهرب!)، بس مقدرتش أخلع قناع العقل وسط كل الجنون ده.
قال جون:
- روي حكالي إنه لما حضر كال، كال قال له إن كل ده هايحصل. حكى له عن سيرسي وعن الساحرة..قال لي إن في إتنين متعلم عليهم.
- يعني إيه؟
- آسف..أنا بس خايف يا إيريك وعمري ما كنت بخاف. أنا مؤمن بوجود الشياطين..أقصد..أنا عارف إنهم موجودين بس معرفش أي حاجة عنهم غير

الي بييجي في الأفلام، أنا مش قد مواجهة زي دي. آندي ماتت ومستحيل يكون موتها انتحار. أنا لازم أمشي من الاباما خالص.
- هاتروح فين؟
- هارجع فلوريدا وهاخد آنجيلا معايا وهاعيد تدريبي هناك السنة الجاية.
- ببساطة كده؟ ماتستنى لحد ما ناخد الشهادات من هنا.
- إنت كمان لازم تهرب.؟إيا كان الشياطين دي حقيقة ولا لأ، بس كاسي حقيقية والقضية هاتتسرب للإعلام، وآندي حقيقية وماتت..ثم أما يسحبوا تراخيص التدريب من سيرسي هاتعمل إيه بشهادة مابقتش معتمدة؟
- عندك حق. بس انا محتاج أخلص التدريب ده وآخد الشهادة دي حتى لو مش هاتشغلني في مستشفى، بس هاشتغل في عيادتي. بريا هاتولد توأم ولازم يكون عندنا مصدر دخل ولازم أكون متفرغ السنة الجاية كلها على الأقل، مش هاينفع أنزل تدريب تاني ومافيش مصدر دخل بعد ما بريا هاتسيب شغلها. بالإضافة إلى إني ضعت أصلا يا جون خلاص..
- لازم تحاول!
مشينا ناحية العربية، الضباب كأنه بيطلع من الأرض مش بينزل من السما..لقيت نفسي بتمنى لو أقدر آخد بريا و أهرب لبرد وهدوء دترويت. إشتقت لأيامنا هناك، الأيام العادية المملة الي مكانش فيها خوارق ولا عالم تاني..وحشني الخوف العادي من الحرامية والقتلة.
كان لازم استحمل وأشيل مسؤلية أولادي..كنت اناني طول عمري، ودلوقتي مش هاسمح بشيء مالوش وجود يدمر حياة الي بحبهم.

***

اما رجعت البيت بريا كانت مسترخية في البانيو وحاطة شموع حواليها. واضح إنها إستأذنت من الشغل بدري تاني. الساعة كانت 3.
قعدت على حرف البانيو، سألتني:
- رجعت بدري أوي.
- واضح إن الشياطين جت تنتقم لكاسي..آندي أتوفت.
- نعم؟!
- انتحرت.

قامت بسرعة ونشفت نفسها وطلعت الصالة. وقفت قدام الشباك، شلت سدادة البانيو وطلعت وقفت جنبها.
- إيريك..إحنا ملعونين..
- إحتمال..
- إزاي تحارب حاجة مش شايفها؟ هي الي قتلتها؟ نقتلها طيب؟ نلعنها؟ لو قتلنا كاسي كل ده هايتحل؟
- معرفش.
- نروح الكنيسة طيب؟ نصلي؟\
- معرفش.
- انا مش هاستسلم!
- إنت لازم ترجعي لأهلك، وتسيبيني هنا ماتقلقيش هاتصرف. لازم تكوني في مكان آمن.
- مش هاسيبك!
- جون مسافر خلال تلات أيام، عقبال ما يلم حاجاته.
- يعني هو كمان خايف؟ يعني مش إحنا بس المجانين؟
- هو شافها..
- كاسي؟
- سيرسي..
-هلاوسك مُعدية.
- مش يمكن بنحلم؟
- مش يمكن موتنا أصلا؟
- إنت لازم تمشي من هنا..إرجعي لأهلك وخلي بالك من ولادنا، هاحصلك أول ما أخلص.
- تعالى معايا، إنت لو فضلت هنا هاتموت، فاكر كلام سيبل؟
- بريا..حبيبتي، أنا عمري ما كنت زوج كويس..أنا إتجوزتك بدافع الحب، بس كمان لأنك كنت مناسبة لصورة معينة في دماغي عن شكل حياتي. كنت بعاني طول الوقت إني ما ابقاش زي أبويا، لكنني في النهاية خونتك وخونت أولادنا. أنا مش ههرب تاني، كفاية جبن، مش ههرب وأشوفك بتعاني تاني علشان تصرفي على ولادنا وتربيهم لوحدك وانا موجود ومش موجود.
- وهاستفيد إيه أما تموت؟!

- الدنيا مابتمشيش كده...انا رافض أؤمن إن الأشباح بتمشي على وش الأرض وإن الشياطين قادرة تقتل..وحتى لو مُت وانا بحارب، هايكون لك مبلغ محترم من بوليصة التأمين هتأمنلك حياة كويسة وهاتساعدك تسددي الديون..شوفتي موتي ممكن يكون أفضل إزاي؟
- أنا عايزاك معايا حتى لو هاتعب واشتغل، إزاي ممكن ابقا غنية وانت مش معايا ويكون ده أحسن لي؟
- لسه في إحتمال إن كل الي بيحصل ده مش حقيقي.
- ليه مش عايز تصدق إحساسا كلنا؟ الشيء الي بتشوفه ده هايقتلنا!
- لأني طبيب نفسي! العقل مخادع والذكريات مرنة وبتتشكل حسب رغبة الشخص. الواحد بيغيرر ذكرياته بنفسه لحد ماتبقا حقيقة هو نفسه مقتنع بيها. الي احنا مقتنعين انه حقيقي دلوقتي هايكون محل شك بعدين..هانكتشف إننا كنا مضغوطين ومابننامش، وهانكتشف إن كاسي مجرد ست مخبولة متحرشة مش أكتر.
- آندي ماتت..الاعيب الذاكرة مش هاتغير ده.
- آندي انتحرت، كانت مضغوطة وتعبانة ومرعوبة.
- انت شوفت الشيطان وهربت منه.
- أنا هربت من هلوسة.
- انا هامشي بعد جنازة آندي، وخلال الفترة الي هافضل فيها هنا هاعمل كل حاجة تقنعك تيجي معايا.
حضنتها وقلت لها:
- بريا، عايزك تعرفي إني عايز اهرب..انا خايف، مرعوب، بس كمان عمري ما عملت حاجة صح في حياتي. عمري ما ضحيت بحاجة علشان حد، ومحتاج التضحية دي علشانك. عايزك تروحي مكان آمن، ولو عشت، وحاسس إني هاعيش، هارجع لك، هايبقا خلاص. ولو مُت وطلعت المستبصرة صح، هابقا أمنت لك وللأولاد حياة كويسة. أرجوكي تفهمي إني بتغير علشانكم يا بريا. سامحيني..
- سامحتك.
- بس انا مش مسامح نفسي.
ساعدت بريا تبدأ تلم حاجاتها في شنط وصناديق، وجت أمها ساعدتها وأخدت الحاجات معاها علشان يبقا سهل بريا تروحلها بعد جنازة أندي.
كنت عارف إن جون وانجيلا كمان مسافرين.

بعد كم يوم أنا وصدف كنا في مشوار بعربيتها ، وقفت على جنب وضربتني بالقلم، ولامتني على اللعنة الي أصابت بنتها وعلى خيانتي وقذارتي. قالت لي إنها ماسكة نفسها بس علشان بنتها، وكان عندها كل الحق.
حضرنا جنازة آندي، كانت جميلة وإحساس السلام غمرنا كلنا وإحنا شايفينها بين أصحابها واحبائها وسط السهول الخضرا.
تاني يوم بريا تعبت جدا، ألم شديد في بطنها ما استجابش للأدوية. كلمت الدكتور بتاعها وقال لي إن فبراير موسم برد وإن تعب بريا طبيعي.
كان لازم اروح المستشفى لأني كنت المتدرب الوحيد الباقي في سيرسي، لكني مروحتش وفضلت جنب بريا أديها المضادات الحيوية بتاعتها.
للأسف تاني يوم مكانتش أفضل، لكنها قامت وجمعت الفاضل من هدومها علشان تروح لأهلها. كانت بتعيط علشان هاتسيبني، وكنت بطمنها وانا محتاج الي يطمني.
جت صدف علشان تاخد بريا، كنت مدرك انها بتعيط بس البكاء اتحول قدامي لغضب وكراهية.
حملت شنط بريا في العربية، مسكت إيدي وإترجتني بصوت واطي وقالت:
- إريك..روح للمستبصرة..روح وأسألها نعمل إيه.

***

في اجتماع لوحدي مع دكتورة بابكوك قالت لي:
- إيريك مش هالف وأدور كتير.المستشفى فقدت ترخيص برنامج التدريب.. وارد جدا كمان افقد منصبي هنا. كاسي اترفدت..جون سافر..وعارفة إنك ممكن تكون خايف إنت كمان، بس احنا محتاجينك هنا وشايفين انك الوحيد الي ممكن يهدي الفوضى في قسم الحالات المزمنة بعد رحيل كاسي.
- أنا؟! انا مجرد متدرب والمرضى هناك مابيحبونيش أصلا. غير إن حالتي النفسية مش متزنة.
- نيكّا وروي بيسألوا عليك كل يوم، حالاتهم محتاجاك. مش قبل شهرين لحد ما نلاقي بديل لكاسي. انا تواصلت مع هيئة التدريب ووافقوا يدوك شهادة معتمدة من الولاية وتصريح كمان لو وافقت تمسك القسم بدل كاسي لحد ما نلاقي بديل. الوضع ده افضل وضع لك لأنك لو ماوافقتش هاتعيد التدريب تاني زي جون..واعتقد لا أنا ولا إنت عايزين ده.

- عندك حق.
- انا بس بحاول أسند قسم الحالات الحرجة قدر المستطاع. من ساعة موضوع كاسي ده وخسرت خمسة من العاملين هنا. المرضى مالهومش ذنب في الفوضى دي.
- دكتورة بابكوك، الخمسة دول راحوا فين؟
- واحد مات، وتلاتة استقالوا، وكاتي مشيت بعد ماتعرضت لتحرش جنسي واغتصاب في الدور التالت.
- كاتي؟ من عمل كده؟!
- واحد من التمريض.
- من هو؟
- ما اقدرش اقول اسمه دلوقتي، لسه في دوامات قضائية ووجع قلب كتير.
- وهي كويسة؟
- ما اتعتقدش. واخدة أجازة بس مش هاترجع منها حتى علشان تلم حاجاتها.
- انا فعلا حزين عليها..كاتي كانت ممتازة.
دكتور بابكوك مكانتش حاطة أي مكياج، عينيها كانت مدمعة وشعرها مش مهندم، كأنها على وشك الانهيار.
- الشهر ده كان عجيب..مش فاهمة في إيه..
- دكتور بابكوك، حضرتك بتؤمني بالخوارق؟ اعتقد لا..احنا الإثنين بنفكر بنفس الطريقة، ما بنؤمنش باي حاجة العلم مابيقدرش يقيسها..لكن بعترف إن إيماني بالواقع بينهار هنا..المكان ده فيه حاجة مش طبيعية.
- المكان ده فيه كاسي..
بابكوك كانت غاضبة وعصبية جدا..كملت:
- فساد ست واحدة قد فساد شياطين الدنيا..ما سألتش عن الي مات من طاقم المستشفى..كورت انتحر، شنق نفسه علشان نام مع كاسي..التلاتة الي استقالوا مشيوا علشان لقوا رموز سحرية على مكاتبهم..الي اغتصب كاتي كان واحد من الي بتتلاعب بيهم كاسي. كاسي بخت السم في المستشفى وقتلتها..لو عايز تمشي امشي يا دكتور بلاك، بس ماتقوليش إنك هاتمشي علشان الشيطان بيطاردك..
- انا مش هامشي.
- كويس. هاتاخد مكان كاسي في الحالات المزمنة، وهاتتابعني اسبوعيا وانا هاشرف عليك.

***

بعد الاجتماع، اخدني دكتور دونالد على جنب ووقفنا في مكان فاضي وقال لي:
- انا مش مؤمن بالخوارق، بس انا شخص بيهتم وبيثق في الي بييشوفه.. هاحكيلك حكاية للعلم بس وعلشان تعرف إني فعلا قلقان عليك. اما جيت لنا هنا كنت في عزك وقوتك..وسيم وذكي وواثق في نفسك..بص بقيت عامل إزاي؟! ماشي تكلم نفسك؟ انا شغال هنا من عشرين سنة، واتمنى حكايتي تأثر في قرارك. قبل بابكوك، كان عندنا مدير عظيم اسمه براون وهو الي عين كاسي هنا. كان في بينهم خلافات كتيرة، بعد اسبوع من خلاف كبير بينهم انتحر..بحكيلك الكلام ده علشان تعرف ان الست دي واصلة وبتنتقم.
- شكرا دكتور دونالد.
- خلي بالك من نفسك يابني..سامعني؟
- حاضر.

***

أول حاجة عملتها أما طلعت التالت هي إني أزور روي.
الولد حالته سائت من ساعة ما جون مشي، بقا بيجرح نفسه أكتر وفي جسمه فوق العشرين جرح متخيط.
أما دخلت عليه الأوضة ابتسم وقال:
- أخيرا جيت؟!
- أكيد..مش أنا وعدتك ما أتخلاش عنك؟
جري روي عليا وحضنني، سيبته يبكي على كتفي، مكانش في سبب يخليني أمنعه، الولد كان مكسور وضايع.
- شكرا!..دكتور بلاك..أنا هموت النهاردة!
- بتفكر في الإنتحار؟
- لا طبعا..هو أنا ناقص ذنوب.
- أمال ليه معتقد إنك هاتموت النهاردة؟
- هي قالت لي إنها هاتيجيلي.
- كاسي؟
- سيرسي.

شاور على الجروح في جسمه وكمل:
- هي الي عملت فيا كده.. تفتكر هاكون عورت نفسي إزاي وممنوع علينا حتى المعالق المعدن؟ عموما انا مجنون ومحدش هايصدقني. بس هي قالت لي إنها هاتخلص عليا الليلة.
مسح مناخيره في كفه وقال:
- انا مش عايز أموت..عايز أشوف أخواتي البنات، عايز أقولهم حقكوا عليا. لو مت النهاردة هاتخدني جهنم ومش هاشوفهم تاني لا دنيا ولا آخرة.
- ماتقولش كده.
- ما اقولش إيه؟ أني مش هاروح جهنم؟ تفتكر ممكن ربنا يسامحني؟ ممكن يغفر لواحد كسر جمجمة أخته الي عندها اربع سنين؟ انا استدعيت كال وهو جه، وهاييجي ياخد روحي النهاردة.
- طيب إزاي ممكن أساعدك؟
- خد مراتك واهربوا. ماتروحوش مستشفيات، ماتروحوش لدكاترة، اهربوا وانقذوا أولادكم.
- مراتي ماشية، والدتها هتاخدها النهاردة،إنت بس قول لي أعمل إيه يساعدك؟
- إحنا خلاص يا دكتور، العوض على الله..في ذنوب كده ماتتغفرش.
روي بكى تاني وفضل يصلي، قعدت معاه شوية بعدها مشيت. كلمت التمريض واتفقت معاهم على مراقبته 24 ساعة لإحتمالية انتحاره، بس كنت عارف إن ده مش هاينقذه.
المرعب إن كل المرضى في المستشفى كانت عندهم نفس الضلالات دي النهاردة، حتى الي كانوا مصابين بالكاتاتونيا ومابينطقوش ولا واعيين لحاجة فضلوا يهمسوا: سيرسي سيرسي..
سيرسي كانت معاهم كلهم، بتنام على سرايرهم، بتهمس لهم بحكاياتها بالليل.
من إمتى والسيد نيكّا بيقول إن الشيطان بيدور عليه؟ من إمتى والسيد السمين بيدعي إن الشيطان هو الي بيأمره ياكل كده؟
الكل كان عنده نفس الشيطان، والكل كان بيطلب مني أهرب.
ما أشتغلتش اليوم ده أكتر من أربع ساعات، مش قادر اكون الشخص الي عايزينني اكونه، مش قادر أكون المصلح الي هاينقذ مستشفى من الإنهيار.

كان لازم اقابل سيبل. سوقت عربيتي بسرعة وتجاهلت كل إشارات المرور. كنت لازم أنفذ وصية بريا، والأهم كنت محتاج تفسير لكل ده..محتاج تعويذة أو كتاب أو صلاة اواجه بيها المجهول، محتاج أعرف نقطة ضعف المسخ الي قدامي.

***

سيبل كانت قاعدة على كرسي هزاز قدام بيتها في انتظاري. مكانش في اطفال حواليها ولا أي أثاث من اي نوع. كل حاجة إتشالت أو أتعبت في صناديق. قعدنا على الأرض، مكانش في كراسي حتى.
سيبل كانت متغيرة، شعرها منكوش ولبسها مش مهندم، وزنها زاد شوية وبشرتها بقت شاحبة ومبقعة..يمكن كل ده بسبب إنها مش حاطة مكياج؟ يمكن..
- إنت جيت علشان النهاية بدأت.
- ايوه.
- عايز إيه؟ شايفني ممكن اعمل لك إيه؟
- انت ساحرة، مش كده؟ ماتقدريش توقفي المسخ ده؟ او على الأقل تقوليلي انتصر عليه إزاي؟ تقدري تقوليلي هو عبارة عن إيه؟ شبح؟ شيء من صنع كاسي؟
- هو واحد من الكتير الراقدين تحت سطح العالم..كيان قديم، أقدم من الأرض نفسها. هو إختار بيته قبل ما كلنا نيجي هنا..الناس الي سكنوا البلد دي قبلنا تحاشوا مكان سباته، واما الأوروبيين وصلوا أمريكا ناداهم وعلشانه بنوا القلعة القديمة. قلعة لاكونكاي دايما كانت مختلفة..وأي إسم يطلق على القلعة دي بيكون دايما إسمها.. كانت بتروح للناس في الأحلام وتفسدهم بوساوسها، بس دلوقتي إتحررت وبتدور عليك.
- إزاي أتخلص منها؟
- فاكر إن ممكن تخلص منها؟ قلت لك إنها كيان قديم أقدم من الأرض نفسها، وإحنا بالنسبة لها ولا حاجة..ولا حاجة!
- تقدري تغيري المستقبل؟ ممكن أستخدم رؤاك المستقبلية لتغيير المستقبل؟
- ممكن أجاوب سؤالك ده بقصة..قريت أوديبوس ريكس؟ قصة أوديب المشهورة..قبل ما أوديب يتولد، اهله راحوا لمُتنبئة، وقالت لهم إن ابنهم هايقتل

أبوه ويتجوز أمه. حاولوا يوقفوا نبوئتها دي بأنهم سابوه تحت سفح جبل علشان يموت لوحده. شخص لقاه ورباه وأما كبر قتل أبوه من غير ما يعرف إنه أبوه، وإتجوز أمه لأنه مايعرفش إنها أمه. كل ماتحاول تغير المستقبل بتلف تلف وترجع لنفس المصير المكتوب لك.
- طيب بريا..هاتكون بخير صح؟
بدات أبكي، كرهت نفسي علشان ببكي كده قدام واحدة ماعرفهاش، بس ماكونتش قادر اوقف الدموع.
- بريا ست فاضلة، والموت بيدي السلام لكل الي يستحقه..الجسم ضعيف، والروح خالدة.
- يعني إيه الي بتقوليه ده؟! بريا هاتكون بخير؟
هزت سيبل راسها يمين وشمال، مسكت كتافها وشديتها وصرخت فيها:
- انطقي!
- بحلول ليلة بكره، هاتكون مع أولادها في الجنة.
- إنت حيوانة! لو قتلت كاسي هاقدر انقذها؟!
- تفتكر إن كاسي عندها كل القوة دي؟
- طيب أجيب كاهن؟ طارد شياطين؟!
- إنت شوفت أفلام كتير، إنت فاكر إن كل المسوخ ممكن تنهزم علشان هوليوود شايفه إن ده ممكن؟ إنت فاكر إن سيرسي مسخ او شيطان؟ آلهة العالم القديم ماعندهومش جسم يتقتل، ولا روح تموت.
- أحرق المستشفى؟
- ممكن تكسر إيديك وانت بتضرب الحيطة، بس الحيطة هاتفضل سليمة.
- طيب قوليلي أتصرف إزاي؟ لو انتحرت الموضوع هاينتهي؟
- هاتلاقي غيرك. إنت مش مسخها الوحيد.
- أنا مش مسخ! انا ما أّذيتش حد!
- إنت مسخ وأنت عارف ده كويس..توبتك كدب وندمك مجرد كلام.
بصيت حواليا لبيت سيبل الفاضي وللصناديق الي حوالينا. كنت بترعش..
- إنت رايحة فين؟
- المكان ده ملعون، هاروح أي مكان أمان.
- إيه الي هايحصل هنا؟
- العاصفة جاية.
- يعني إيه؟؟

- معرفش أكتر من اللي قولته.
- طيب كاسي هي الي عملت كل ده؟
- ماتلومش كاسي،لوم نفسك..أنا بلومك..فسادك هو الي ايقظ الوحش!
- انا مش مصدقك!
- لو قتلتك، هل عدم إيماني بالموت هايخليك ماتموتش؟!
- لو بتكرهيني اوي كده ليه وافقتي تقابليني؟
- علشان مراتك صعبانة عليا وكنت عايزاها تعرف إن دايما في نور وسط الضلمة. ماكونتش عايزاها تقلق على نفسها ولا على ولادها. قل لها ماتقلقش، قول لها إن طيبتها ربنا عالم بيها وهاتتكافيء عليها أضعاف. أرجوك بلغها ده.

بعدت عنها، تعبت من السحرة والمستبصرين، كنت عايز أرجع البيت لمراتي وامسح كل أثر لسيبل وكاسي وسيرسي وكل الكيانات القديمة والشياطين.
سوقت بأسرع ما يمكن، اتصلت بالبيت من موبايلي بس محدش رد..بعدها مابقاش في شبكة.
وصلت البيت كان الكلب واقف ينبح قدام الباب. كل حاجة شكلها كان طبيعي.
جريت على البيت وسمعت بريا بتصرخ! قلبي وقع في رجليا، مافيش وصف يقدر يوصل لي حسيت به ساعتها. كنت خايف اروحلها، خايف الاقيها مع سيرسي..خايف من معاناتها.
دخلت البيت لقيت صدف حاضناها وبريا مايلة لقدام بتعيط وبتترعش وهي ماسكة بطنها.
سألت صدف:
- إيه الي حصل؟!
- من تلت ساعة بطنها وجعتها بالمنظر ده. كلمت الدكتور وقال لي اتصل ب 911. لسه هاتصل بيهم اهو بس البنت هاتموت مش عارفة أسيبها!
- إسعاف؟! محدش يتصل بالإسعاف هايودوني المستشفى وانا عايزة أمشي من هنا..عايزة أمشي من هنا.. بتقتل ولادي!
حضنتها وقلت لها:
- لازم تروحي المستشفى.
- هي يا إيريك..هي الي بتعمل كده فيا..ابعدني عن هنا أرجوك!
كانت بتصرخ وصراخها واصل لعضمي. صدف كانت بتتصل بالإسعاف من الأوضة التانية. وقعت بريا على الأرض وهي بتصرخ وبدأت تصلي.

حسيت بقلة الحيلة..دخلت الاوضة اجيبلها حاجة تتغطى بيها وهي رايحة المستشفى، خرجت لقيتها ساكتة. كانت بتتنفس نفس سريع وحرارتها مرتفعة وجسمها عليه طفح جلدي احمر. إيدها كانت متلجة.
- لازم نمشيها من هنا!
شيلت بريا بين إيديها، صرخت صدف:
- ماتلمسش بنتي! ماتحطش إيدك عليها تاني!
- لازم نخرجها من هنا!
- الإسعاف جايه هاتاخدها..البنت كانت تعبانة وبدل ما انت توديها المستشفى من بدري رميتها لحد ما وصلت للحالة دي.
- هي الي كانت عايزة تلم حاجتها وتمشي ومش عايزة تروح مستشفى!
شيلتها وجريت بها على الباب، صدف فضلت ترمي عليا أي حاجة إيدها تطولها وهي بتعيط:
- إنت رجل ناقص، أذيت بنتي..كل الي بيحصل لها بسببك! إستنى هنا الإسعاف جاية.
حطيت بريا على السرير، وهنا بدأت صدف تصرخ وهي باصة لصدري.
بصيت لقيت القميص غرقان دم، الطفح الجلدي على جسم بريا بدأ ينزف وغرقنا دم، الدم كان بينقط منها وينزل من بين شفايفها.
بكيت في هيستريا وضميت جسمها لحضني. حاولت أفتكر أي دعاء، ما افتكرتش إلا جمل بسيطة..مكانش عندي اي كلام اقوله لربنا..ماعنديش أي حاجة أقدمها له علشان ينقذ مراتي.
سمعنا صوت سرينة الإسعاف بتقرب، شيلتها وطلعتهالهم وركبت معاها وفضلت ماسك إيديها.
- بريا حبيبتي..سيبل بتقول لك إنك هاتلاقي النور في الضلمة، سيبل بتقول إنك والأولاد هاتكونوا في سلام..ماتخافيش..ماتخافيش..

***

دخلت بريا أوضة العمليات فورا.
فضلت قاعد بره باكل ضوافري، الوقت مابيعديش، إيماني بالعلم والمنطق تداعى تماما، الغضب كان بيسري في عروقي زي الدم.
عايز مراتي ترجع لي..عايز ولادي..

- كاسي يا عاهرة..لو ماتت هاموتك..
عدت ساعات..
كنت بزعق وأشتم أي حد يقرب مني، كنت بكسر أي حاجة أعدي من قدامها..
عدت ساعات..وعينيا غمضت غصب عني...
شميت ريحتها قبل ما أشوفها، حسيت بالخنافس بتطلع على رجليا..مش مهم لو الناس شافتني مجنون، كلمتها..
- إنت الي عملتي كده؟
كانت جين قاعدة جنبي..كانت زي الملايكة..قامت ووقفت جنب سيرسي وبدات الخنافس تطلع على فستان جين..قالت جين في هدوء:
- إنت الي عملت كده..مش فاهم ليه؟ إنت بقيت واحد مننا..إحنا انقذناك!
حطت جين إيدها على كتفي وقالت:
- مافيش حاجة تخاف منها خلاص..سيب كل حاجة زي ماهي، كده أحسن..ماتقاومش..
فتحت عينيا، سيرسي كانت واقفة قدامي..كانت بتتغير، الخنافس بتختفي وبدالهم كان الطاووس على يمينها وكال على شمالها.
-إنتِ إيه؟
- أنا واحدة من الأقدمين..كنت هنا قبل العالم ما يتكون.
فتحت شفايفها الشاحبة، شوفت جوها عالم كامل مظلم عجيب..لدقايق كنت ببص لها في دهشة، كأني طفل مبهور بألوان ماشافهاش قبل كده.
أخيرا سألتها:
- إنت عايزة إيه؟ عايزاني اقتل كاسي؟ لو قتلتها هاتسيبي مراتي؟
قبضت بإيدها على أوردتها الشبيهة بالخراطيم السودا، ونزل منها سائل مقزز وصل للأرض. قالت لي:
- إشرب مني وهامنحك حياة أبدية، إديني ولادك ومش هاتموت ابدا.
- مش هاتاخديهم.
حسيت بإيد على كتفي، بصيت لقيتها ممرضة بتقول لي:
- يافندم..حضرتك كويس؟
رديت في عنف:
- لا مش كويس!
ممكن اكون إتجننت، ووراد أكون مجنون من الأول، وكل الي عيشته حلم..هو المجنون بيعرف إنه مجنون؟

دابت سيرسي في دمها الأسود على الأرض..
- يافندم.
- نعم؟!!!
- أنا بس شوفتك بتكلم نفسك فقولت لو تحب ننادي دكتور يساعدك؟
- لا..انا بتكلم وانا نايم عادي..شكلي غفلت.
- بس شكلك مكانش نايم.
- أنا كده، بنام مفتح..في حاجة تاني؟
- الدكتور عايزك.

الفصل الثامن

خواء في البداية وخواء في النهاية...

حجر أودين

***

الدم كام مغرق جزمة الدكتور، أعتقد إنه مكانش واخد باله.
كانت صغير في السن وذكي، لو في فرصة تانية كنا بقينا صحاب. ابتسمت له فبرقت لي صدف. الموضوع كان منتهي بالنسبة لي..
- الوقت كان إتأخر أما وصلت..المفروض كانت تيجي من يومين على الأقل..كان ممكن ننقذها. الجنين الأول مات من اربع أيام تقريبا واتحلل وعمل تسمم. حاولنا نخرج الطفل التاني بعملية قيصرية، لكن بمجرد ما فتحنا ضغط دم الأم نزل فجأة وللاسف إتوفت. سبب الوفاة تسمم حمل.
سيبتهم ومشيت من غير ولا كلمة. سوقت عربيتي وروحت سيرسي، ووقفت في الطريق أملا جركنين بنزين.
مكانش في أفكار.
مكانش في رد فعل..
مكانش في تحليل لأي معلومة عرفتها..

***

دخلت المبنى القديم شايل الجركنين، النهار كان بدأ يطلع. كسرت الباب برجلي ورشيت البنزين في كل مكان وخرجت ورميت عود كبريت.
النار إشتعلت فورا وبدأت التماثيل تذوب وورق الحائط يكرمش ويتقشر.
المبنى بدأ يأن وتهز، خرجت قبل ما ينهار.
مشيت للبرج القديم، كان الكل بيبص عليا من أول المرضى لحد الدكاترة.المرضى كانوا بيصرخوا والعاملين كانوا متجمدين مكانهم من

الصدمة. غرقت البرج القديم بالبنزين وولعت الكبريت ووقفت أشوف قلب سيرسي بيتحرق.
روحت بعدها للساحة، الجو كان جميل والسما صافية والطاووس كان واقف فارد ديله وسط الزهور الوردية.
الناس كانت بتتجمع حواليا وافراد الأمن موجهين لي السلاح.
مش مهم..
مشيت ناحية السيد السمين واخدت منه سيجارة وقعدت وسط المرضى أدخن بمزاج واتفرج على سيرسي بتتحرق.
حط السيد السمين إيده على رجلي وقال:
- برافو عليك.
صوت أجراس الإنذار بيرن بعيد.. المرضى بيجروا ويصرخوا في كل إتجاه..الأمن كان بيصرخ فيا..
قعد السيد نيكّا جنبي وولع سيجارته من سيجارتي وقعدنا إحنا التلاتة زي الصحاب، رايقين ومش هاممنا أي حاجة.
قال السيد نيكّا:
- كلنا مجانين في بعضينا..
- صح..
- بوب، الممرض الي في التالت، فتح دماغ روي أمبارح موته. بس أنا وإنت يا دوك عارفين ان الشيطان الي تحت السرير هو الي وسوسله يعمل كده.
- ايوه..أنا ولعت بقا في الشيطان.
- تبقا أجن مني يا عمنا لو فكرت إنك ممكن تحرق شيطان!
البوليس جه وحاوطنا، بعدوا صحابي المجانين عني وسحبني البوليس معاه.
كنت عايز ادور على كاسي بس مش مشكلة، مسير الحي يتلاقى.
قعدت تمن ساعات في الحجز ماكونتش شايف قدامي إلا جثة بريا. لسه حاسس بكفوفها في إيدي..لسه سامع صوتها بتترجاني ابعدها.
لسه دمها ملصخ قميصي وإيديا.

***

جيريمي هو الي جه واخدني من القسم. الرجل كان مفزوع اما شافني في الحجز وغرقان دم.
شدني وحضني، بس ماقدرتش اردله الحضن. كنت ببص لكل حاجة بدون أي مشاعر.
كنت سامعه عمال يرغي بلهجته الريفية الطيبة ويعزيني ويعتذرلي..بس كلامه بالنسبة لي كان كله ميت..زي بريا.
مجرد ما خرجنا من القسم سيبته ومشيت. سألني:
- على فين يا أخويا؟
- في حاجات لازم اخلصها.
- يابني جنازة مراتك خلال يومين وإنت رايح تولعلي في المستشفى! إحمد ربنا إنهم ما حجزوكش مراعاة لظروفك وضغطك النفسي. إتنيل بقا روح لحماتك اقف جنبها في المصيبة الي هي فيها.
- إتنيل إنت وإبعد عني..مش عايز اقتراحات من حد!
- عارف إنك موجوع، بس إنت دكتور وفاهم إن الي إنت ماشي فيه ده غلط. فكرك مراتك كانت هاتنبسط اما تمشي تولع في الدنيا كده؟
فكرت في بريا وطلبها إني اروح لسيبل...بريا كانت عايزاني اوقف المسخ ده..
- ايوه..كانت هاتنبسط..

***

عرفت مكان بيت كاسي..
كان بيت راقي زيه زي اي بيت في مستوى إجتماعي عالي. مجرد ما اقتحمت الباب كان كل شيء مختلف عن أي بيت شوفته في حياتي.
الحوائط متعلق عليها اقنعة عجيبة من كل الحضارات القديمة. كتب عتيقة في كل مكان، مافيش أي حاجة عادية في البيت إلا صورة لكاسي مع رجل وطفل مبتسمين.
كاسي كانت لابسة روب حمام وقاعدة بتتفرج على التلفيزيون. جمالها كان ساحر فكرني بكل ذنوبي السابقا.
حست بوجودي لكنها ما إتفاجئتش. بصت لي، سألتها:
- كنت عايز أعرف ليه.
- ليه إيه؟

- ليه قتلتي عيلتي؟
ضحكت وقالت:
- انا زيي زيك، ضعيفة..أنا مجرد أداة.
- قصدك إيه؟
- ده تمن العبور لحياة أبدية..انا كمان فقدت عيلتي..الم الفقد بيقل مع الوقت..سيرسي قتلت عيلتي، وانا الي فتحتلها باب موتهم.
- ليه كان لازم تقتلي بريا والأطفال؟ ليه ما قتلنينيش؟ أنا الي سيبتك وضيعت مستقبلك مش هي..ليه ما قتلتينيش؟!
كنت ببكي تاني ..اتمنيت يرجعلي خدر المشاعر الي كنت حاسس بيه.
- مكانتش أنا.
لكمتها في وشها، فضلت اضربها لحد ما وشها بقا كله دم. ركلتها في بطنها وفضلت اركلها لحد ما حسيت ان عضمها كله إتكسر. شيلتها ورميتها على الكنبة..كانت بتتنفس بصعوبة، عين من عينيها كانت مقفولة تماما وغرقانة دم.
ضحكت! ضحكة شريرة غريبة رعبتني. قالت بصوت مبحوح:
- مش انا الي قتلتهم..إنت كنت معايا في البدروم ليلتها، إنت الي قتلت مراتك.
- كدابة!
- متخلف! طول عمرك وغبي.. الأقدمين بيشوفوا جوه كل واحد وما يهمهومش كلام حد ولا الي باين عليه..وانت نايم معايا كنت بتفكر في إيه؟ في إنك بتحب مراتك؟! لا طبعا..كنت عايزها تختفي وسيرسي سمعت امنيتك وحققتها.

قعدت على الارض وبصيت لها، كانت كدابة، بس دايما كدبها بيلمس الحقيقة.
قمت وركلت كاسي تاني وخرجت من بيتها.
فضلت ماشي في الشوارع لحد ما تعبت ونمت على دكة. واضح إن حد طلب البوليس لأني كنت غرقان في دم بريا وكاسي.
آخر حاجة كنت بحلم بيها هي بريا والاولاد بيجروا ورا بعض وبيضحكوا على شط البحر.
صحيت لقيت البوليس بيجرني والمرة دي فضلت في الحجز ايام لا باكل ولا بشرب ولا واعي لأي حاجة.
جيريمي جه وأخدني المحكمة. بابكوك ومحامين المستشفى كانوا هناك، قدروا يخرجوني بشرط متابعة طبيب نفسي للتقييم.

***

بشكل ما حكايتي ما وصلتش للصحافة، ماعرفتش اي حاجة عن إحتراق سيرسي..كل الي حصل هناك كأنه ماحصلش.
مارجعتش المستشفى تاني، واما رجعت بيتي صدف كانت اخدت كل حاجات بريا والكلب. جمعت انا حاجاتي وكان لسه دم بريا مبقع المكان. ماكونتش طايق المكان.
اخدت شنطي وروحت لجيريمي. قعدنا إحنا الإثنين على الشط وحط إيده على كتفي وما اتكلمناش في أي حاجة. فضلنا باصين للشمس وهي بتغرب.

***

ماكونتش باكل ولا بنام..جيريمي كان بيراقبني وانا بشرب وبدخن وانا حاضن دب فرو كانت جايباه صدف لأولادي ونسيت تاخده.
عدى الربيع والصيف، جيريمي كان بيحاول يعزم عليا بخروجه او سفرية تانية لنيو اروليانز. كنت دايما برفض، ماعادش في أي حاجة لها لازمة.
جون جه زارني مرة، قال لي إن بابكوك ماتت بتسمم أكل وإن في مدير تاني لسيرسي دلوقتي. حاول يفنعني اروح معاه التدريب الجديد بس انا رفضت.
مكاونتش مركز في باقي كلامه، ماكتش عايز اسمع حاجة..حاول يديني فلوس رفضت ومشيته ورجعت وضتي الضلمة تاني.
موسم الأعاصير جه، قالوا في الأخبار إن الإعصار الي جاي قوي جدا..كنت عارف إسمه..كاساندرا.
كاسندرا كانت جايالي وجايبه معاها النهاية.
سيرسي عمرها ما نامت، كنت بشوفها وبشوف جين على الشاطيء.
الإعصار حسب النشرة كانت متوجه لفوريدا بعدها خلال ايام هايوصلنا.
خلال الأيام الي بقت العاصفة الساحل كان في فوضى. جرايم قتل، حيوانات مسعورة، حتى إن سيرسي إتحرقت تاني! نيكا حاول يحرقها كلها.
سألني جيريمي:
- هو فعلا زي ما حكت لي بريا إنك إنت وكاسي جضرتوا شيطان؟!
- انا مش مؤمن بالشياطين، بس كان في فعلا حاجة في سيرسي.

- ياعم الدنيا كلها إتلطت.. واحد صاحبي هنا قتل مراته إمبارح، بعدين موضوع الإعصار العجيب ده..هو ده له علاقة بموضوعك؟
- معرفش..بس لو كنت مكانك كنت هاروح أدور على بروك واعتذرلها وارجعها بعدين آخدها وأهرب من هنا خالص.
- مش هاترضى ترجع.
- هاترضى..اما تشوف العاصفة جاية هاتفتكر إنك كنت دايما مخلص لها وكنت زوج طيب هاترجع. إنت بتحبها، قول لها إنك بتحبها وحاولوا تخلفوا تاني. هي بتحبك بس الحياة نستها.
- لو روحت لها، إنت هاتقعد هنا لوحدك؟
- ماتقلقش..عندي ميعاد.

***

جيريمي سافر تاني يوم لمراته، راح يدور على حبه الحقيقي.
كل الي حوالينا كانوا بيقفلوا بيوتهم وبيسافروا لحد ما العاصفة تعدي. كنت شامم ريحة سيرسي في الهواء..
بليل جثث الأسماك النافقة ملت الشاطيء، الطيور كانت بتقع من السما، الحيوانات الميتة كانت مرمية على الطرق.
طلعت على الشاطيء، معايا بيرة وصورة بريا. قعدت على الرمل وسط العاصفة والبحر المجنون. مع الفجر السما بدأت تسود، والأمواج تعلى وتعلى.
مكانش في مطر، رياح عنيفة بس بتقلع الشجر من جذوره.
ماكونتش خايف، كنت بتفرج على جمال الموت وبهاؤه وقت مجيء كاسندرا.
كانت جميلة كعادتها، كانت لابسة كعب عالي على الرمل..ابتسمت لي وقعدت جنبي..قالت:
- خلاص.
- فعلا..
- هاتيجي معانا؟
- معاكم؟
بصت قدامي وشوفت جين وروي..مكانوش متأثرين بالإعصار..
في لحظة لقتنا كلنا في سيرسي. الرياح وقفت والزمن وقف. المستشفى كانت غايصة في الضباب كعادتها والطاووس فارد ريشه.

ابتسمت لي كاسي وفتحت الباب للمبنى القديم، دخلت وراها..كل ده كان طبيعي جدا بالنسبة لي زيه زي اي يوم زمان.
روي كان نضيف وجميل. قال لي:
- انا كنت غلطان، المكان هنا جميل وعمرك ما هتكبر ابدا وهايكون عندك كل الي تتمناه.
مشينا، وشوفت دكتور يوشي بيسلم على كاسي وبيباركلها على منصب المدير!
قال له:
- شكرا، فاكر دكتور بلاك؟هياخد مكاني القديم وروي هياخد مكان كاتي.
- جميل! جميل!
سابنا دكتور يوشي ومشي. سألـتها:
- هو ده بجد؟!
ردت جين:
- طبعا..المكان ده بتاعنا، طول عمره كان بتاعنا..إحنا أولاده.
اضاف روي:
- وحراسه.
قالت كاسي في تعاطف:
- انت عملت اللي المفروض يتعمل، واحنا كمان عملنا واجبنا. هاه..هاتنضم لنا؟
- مش فاهم، انت قتلتي مراتي وولادي..اخدتي كل حاجة!
- إنت إديتهوملي!
الصوت الي جاي من ورايا رعبني، غمضت عينيها ولقيت نفسي في الاوضة الي تحت سيرسي بس المكان مكانش ضلمة خالص، كل حاجة كانت مضيئة..\
قال الصوت:
- كانوا هديتي..
الكتابات على الارض كانت منورة، الدايرة مكانتش مرسومة بالدم، كانت مرسومة بالنور..على حافة الدايرة كان عالمنا بينتهي وبيبدا عالم تاني خالص ورا أي خيال.
- عمري ما اديهوملك هدية..
كنت حاسس بالدموع المحبوسة تحت جفوني..طبعا انا اديتهم لها هدية.
- انت نمت في دايرتي وبكل إخلاص اديتهوملي.

قدامي تجسدت سيرسي، جميلة وفي شكل بشري، وكال نايم على رجليها.
حواليها كان عدد كبير من الأشباح، قتلاها.
- إنت قتلتي كل الناس دي.
- كان لازم تفضل البوابة مفتوحة.
- بس ايه ذنب الناس دي كلها؟
- الموت هو بوابة العبور..
- وانتم ليه عايزين تعيشوا للابد؟
جاوبت جين:
- إحنا مش زي ضحايانا..الموت مش هايكون حنين علينا..طول عمرنا كنا عبيد آلهة من لحم ودم وسلطة.
- وانت يا جين ايديتهم إيه علشان تبقي هنا؟
- أولادي..إحنا هنا آلهة!
بصيتلهم..كلهم كانوا شبهي..كانوا زيي ودفعوا التمن..ولازم قصاد التمن ياخدوا مكافئتهم..
أخيرا قلت:
- أعتقد إني هافضل هنا معاكم..
خطيت جوه الدايرة وفهمت إن كل واحد مات له تمن لازم يتدفع..
ومابصيتش تاني ورايا.

النهاية
-

حسابات مصممة الأغلفة مي جمال:
https://www.behance.net/maigamal3
https://www.instagram.com/maigamalelsaid/

صفحة المترجمة لمتابعة المزيد من الأعمال المترجمة المجانية:
https://www.facebook.com/sherinhanaey